حروب حول العرش

بسم الله الرحمن الرحيم

١

مَن أصحاب الدين، الفرس أم العرب ؟

" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم" وَ "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرءان مهجورا".

ما إن أسقط العرب بالقرءان دولة الفرس، حتى بدأ الفرس يكيدون للعرب وكتابهم. ثم جاء من الأعراب الملاعين من يؤيد الفرس في كيدهم هذا، واستضعفوا الرسل، كما استضعف فرعون بني إسرائيل، وذلك لكي يعلوا في الأرض كما علا فرعون في الأرض وجعل أهلها شيعاً.

ولكن من الأمور المعلومة أن كل جماعة تُضطهد فإنها تزداد قوة في الغالب، وتزداد تعلقاً بالشيء الذي تُضطَهَد من أجله. فإذا قال فرعون للناس "اهجروا القرءان" فإنه لا شك سيفشل ولن يطيعه أحد مهما فعل. ولكن لو استطعنا أن نجد طريقة نبعد فيها العرب عن القرءان عن طريق القرءان، فعندها سيهجر العرب هذا القرءان وسيعتقدون أنهم يطيعون ربهم ويحسنون صنعا. أي باختصار، نريد طريقة تكون مصداق قول الله "ويحسبون أنهم يحسنون صنعا". و "ويحسبون أنهم مهتدون".

وإذا نظرنا في القرءان فسنرى أنه قصص وأمثال في جوهره ومن هذه القصص تستنبط الأحكام، وأيضاً أنه بلسان عربي دقيق وعلمي. فإذن نريد أن نخترع شيء غير هذا لنغير هذا. فنريد قصص غير قصص القرءان. ونريد مصدر للأحكام والأفكار غير القرءان. ونريد لغة غير لغة القرءان. وكذلك نلاحظ أن القرءان يجعل الله والعلماء هم محور العالم كله، فنريد أن نغير هذا المحور. ونوجد للدين محور آخر. فنحتاج إلى أربعة أشياء.

أما للقصص عامة فجاء الطبري الفارسي. وهو الذي حوّل الأنبياء إلى شخصيات تاريخية وجاء بخرافات، وكذلك أرّخ كما يزعم للتاريخ "الإسلامي".

وأما اللغة، فجاء سيبويه بلغته الشعرية، وهو فارسي بالطبع.

وأما مصادر الأحكام، فجاء أصحاب كتب الأحاديث، كالبخاري ومسلم، أي أصحاب الكتب الستة، وأيضاً ويا للعجب كلهم فرس.

وأما محور الدين، فجاء ابن هشام وابن اسحاق وجعل محمد هو محور الدين، محمد التاريخي الذي خلقوه بأيديهم، وهو فارسي.

ومن الأمور التي فعلوها أيضاً هي تفسير القرءان. فمعلوم أن القرءان مفصل تفصيلا ويفسر نفسه بنفسه. وجاء الطبري أيضاً بكتابه الطويل الممل وحوّل القرءان لساحة حرب وخلافات وشعر وآيات ملغية، وتعليقات سطحية، وخرافات غبية تلائم عقله وعقل من يرضون عنه.

وبعد هذه الأصنام الخمسة التي نحتوها بأيديهم وقالوا أنها من عند الله بطريقة غير مباشرة، أصبح كل من يأتي بعدهم يأخذ مما جاؤوا به ويضيفون قليلاً أو ينقصون.

فما هي نظرة الله لهذه الأصنام الخمسة؟

أما القصص الأخرى. فيقول الله عن قصصه "أحسن القصص" وليس بعد الأحسن إلا الأقل حسناً، ومن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فهو يهودي كما هو معلوم. ثم إن قصص الله سنن وأسرار. وليست تاريخ وصخور.

وأما اللغة الشعرية. فالشعراء يتبعهم الغاوون. والذين يزعمون أن الشاعر يمكن أن يكون مؤمناً بحجة الاستثناء "إلا الذين ءامنوا"، فإذن كذلك السارق والزاني والقاذف يمكن أن يكون سارق مؤمن وزان مؤمن وقاذف مؤمن في آن واحد لأن الاستثناء ورد هنالك أيضاً. وهذه هي الكذبة التي برروا فيها روايتهم للشعر وبناء دينهم عليه.

وأما مصادر الأحكام الأخرى. "إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين" وأي مصدر آخر فهو شرك.

وأما محور الدين. "ما محمد إلا رسول. قد خلت من قبله الرسل" "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ" كل من يزعم أنه يتبع محمد عن طريق اتباع غير كتاب الله فهو أول من سيتبرأ منهم محمد "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، لست منهم في شيء".

ليس عند العرب إلا كتاب الله وحده. "فإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

...-...

٢
كيف نكتشف قيمة القرءان ؟

١- "إنا سمعنا قرءانا عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنّا به" و "سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" و "كذلك يضرب الله الحق فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" "وتفصيل كل شيء لا ريب فيه من رب العالمين" وَ "لن تجد لسنت الله تبديلا". "واصبر لحكم ربك".

٢- فالقرءان يستمد قوته من نفعه للناس ومطابقته للواقع. ولا يهم من جآء به، أو من يحمله، أوأي اعتبار آخر.

ومثل ذلك كالذهب. فإذا أردنا أن نعرف درجة جودة سبيكة من الذهب، فنحن لا نهتم بهيئة حاملها. ولا نصدق دعاوي صاحبها المجردة. ولا ننظر في قول الناس ورواياتهم عن صاحب السبيكة، أو الروايات التي تدعي أن هذه السبيكة في قمة الجودة ومن أعلى عيار. كل هذا لغو. بل إن وجوده يشكك في صاحب السبيكة ويدعونا إلى الأخذ بالحيطة أكثر وأكثر. وإنما المهم هو المحك الواقعي، أي عرض السبيكة على نار التجربة لنرى. وعلى هذا الأساس العلمي يدعونا العقل والقرآن أن ننظر إلى القرءان. ومجرد كون القرءان يعتمد هذا المعيار يدل على رقيّه كبداية رفيعة. وتدعونا إلى التبسم من هذا الرقي، ولعل هذا من أسرار افتتاح القرءان بقوله "بسم". إذ لا محل للعابس الخائف في هذا الكتاب.

ومثل آخر هو الطعام. فالعبرة في الطعام هي موافقته طبيعة الجسم وجلب الصحة والقوة له. فإذا قدّم لنا طعام فنحن لا نهتم بصاحب الطعام إذا تبين لنا أن الطعام نافع لنا. ومن فرحة العقل كونه يخالف الجسم في التجربة، حيث إن طعام الجسم المسموم يؤدي إلى موت المجرب، أما طعام العقل فإنه في أقصا الحالات يزعج العقل قليلا ثم يولي مدبراً. ولو قدّم لنا طعام جسماني وقيل لنا أنه أحسن طعام وأفخم طعام وأنفع طعام لكل الناس ثم تبين أنه سبب الموت والمرض فهذا يكفي لرفضه ولو كان الطباخ هو أشهر طباخ في العالم وأحسنهم خلقا وأكرمهم وأجودهم. كل هذا لغو وحشو لا محل له من الإعراب في واقع الحياة.

ولذلك نلاحظ القرءان يستند على أركان. "عجبا" وَ "يهدي إلى الرشد" وبعد ذلك يقول "فآمنّا به". فالذي لا يملك علم عميق في القرءان ويزعم أنه يؤمن به فهو من أولي العاهات المنافقين الذين "يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم". ويقول "سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم" وبعد ذلك بفترة "حتى يتبين لهم أنه الحق" فلا يكفي أن يرى الإنسان فكرة أو فكرتين من القرءان تطابق الواقع الآفاقي والنفسي حتى يزعم أنه يؤمن ويعلم أنه الحق. بل يجب أن يستمر في

الدراسة والرؤية "حتى يتبين لهم" فالمسألة ليست مسألة يوم أو يومين. فهي طريقة في الحياة، حياة العلم، أكثر منها مجرد دعاوي الإيمان وسفاهات الأطفال والبدو.

وكذلك نرى أن معيار الحق هو "ما ينفع الناس"، وبالتالي يكون معيار الباطل هو "مالا ينفع الناس، أي يضرهم قليلاً أو كثيراً" بحسب النسبة. فالذي يأكثر مما ينفع باطل، والذي ينفع أكثر مما يضر حق. ولعل أكثر أو كل أمور الحياة تتراوح بين غلبة النفع وغلبة الضرر.

"وتفصيل كل شيء" فكلما كان الكتاب نفسه مفصل. وكلما كان الكتاب يفصل أكبر عدد من الأفكار الممكنة، كلما ازدادت قوة الكتاب وقيمته. والقرءان يدعي أنه الأحسن، فهو يقر بوجود أفكار أخرى حسنة، ولكن هو الأحسن "إن هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم". ويدعي كذلك أنه يفصل كل الأفكار الموجودة والتي يمكن أن توجد في عقل إنسان، وأنه هو نفسه مفصل تفصيلا على علم وحكمة وخبرة. فباختصار هو يجعل نفسه أعظم عقل في الوجود. وحيث أن كل من يحيط بعقل ما يصبح مثله. فالقرءان يدعي أن كل من يحيط بعلمه سيكون له أعظم عقل في الوجود. ولذلك قرن بين الله وبين المحيط بعلم الكتاب "قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومَن عنده علم الكتاب".

"ولن تجد لسنت الله تبديلا". فالقرءان يكشف عن سنن يسير عليها الخلق. كالنظام الذي يسير عليه جسم الإنسان مثلاً أو الكمبيوتر. وحيث إن الذي يفهم الحكم أو القانون الذي يسير عليه شيء فإنه يملك أن يتنبأ عن حال الشيء، وكذلك يملك وسائل تغيير الشيء إذ هو يعرف الأسباب التي تؤدي إلى خلق أي شيء. ويدعي القرءان أنه لا يمكن لسنة في الواقع، أي في الآفاق أو الأنفس، إلا أن توافق السنة التي يكشفها القرءان.

٣- من المعلوم أن كل مهنة أو دراسة تفترض في متعاطيها أن تكون له صفات معينة أو اهتمامات معينة. وأولاً أن يكون يرغب من عمق قلبه أن يتعاطى هذا العمل. ثم تأتي المؤهلات الأخرى. وهنا يظهر لنا القرءان نوعية البشر الذين يمكنهم أن ينتفعوا به. وأهم هذه الصفات هي الرغبة في الكبرياء التام مهما كلف الأمر. ومع هذه الصفة يأتي الصبر، لأن علم القرءان لن يتكشف إلا لصابر متصبر. يمكن الجمع بين هذه الصفتين في كلمة واحدة هي: الحياة للعلم. ولذلك يسمى الله "رب العالمين" فهو ليس رب الجاهلين ولا الكسالى المنافقين ولكن رب من يرغبون في حياة أساسها التعلم وغايتها تحقيق العلم التام. ولو أن هذه الغاية قد لا يدركها أحد في هذه الحياة. ولكن كون الغاية بعيدة يعني دوام السعي، ولذلك قال "والذين هم على صلاتهم دائمون". ولذلك أيضاً ذكر العلم وتصريفاته أكثر من ٨٠٠ مرة في الكتاب العزيز، أي بمعدل ٧ مرات في كل سورة. وفي هذا من القوة ما لا يخفى على العلماء بالنفس.

ويوجد قواعد كثيرة يقيم عليها القرءان عقله ويدعو إلى بناء العقول عليها. ولكن ذكر كل هذه القواعد مما يطيل البحث المختصر هنا، ولعل دراسة كل قاعدة أثناء دراسة القرءان عامة مما يفضل على جمعها كلها هنا. ولكل مقام مقال.

فالقرءان كتاب علم قائم بنفسه، ولا يهم من حيث الأصل هل جاء به غلام من الصحراء أم فتاة من حوريات البحر، ولا يهم هل مصدره رجل موهوم يجلس في السماء أم امرأة قبيحة تسكن في المريخ. عاملوا القرءان كما تعاملون الذهب والطعام. وعندها سترون عرش الله العلي الكبير. ومن استطاع أن يجد أحسن من القرءان فالقرءآن يأمره بأن يتركه ويذهب وينتفع من ذلك الكتاب الآخر "قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم".

٤- نلاحظ أن قيمة أي شيء تظهر من دراسته هو نفسه وَ من مقارنته مع غيره. أما دراسة القرءان نفسه فقد عرفنا منها كما ذكرنا. وأما مقارنته مع غيره فهذه الآية الأخيرة تشير إليها.

فسيأتي، وقد أتى فعلاً، من سيقول أن عنده منهج في الحياة أحسن من القرءان. وقد يكون فرداً أو جماعة. ومن أجل أن نتفاهم مع هؤلاء ونجادلهم، يقدم لنا القرءان هذه الآية كنقطة انطلاق. فإذا جاءَنا أمثال هؤلاء فنحن نريد فهم خمسة أمور، ومن الانصاف أن يعطونا إياها إن أرادوا العلم والامتناع وليس مجرد الشغب والكبرياء عن طريق المخالفة المجردة.

أولاً "فأتوا" وتشير إلى الجمع والإجماع. فنريدهم أن يجمعوا لنا كل آراءهم، وآراء أئمتهم أيا كانوا. وهو ما أشار إليه نوع المجادل في قوله لقومه "فأجمعوا أمركم". وفي ذلك فوائد للجميع. فمنها أنهم سينتفعون عندما يرون آراءهم قد جمعت في محل واحد خارج عن خيالهم المجرد. وبالتالي يملكون ميزة النظر إليها بتجرد نسبي. ولنا منفعة إذ عندما نرد على رأيهم لا يأتي من يقول أن هذا الرأي شاذ أو ما شابه من وسائل التهرب. وكذلك فإذا قبلنا نكون على بينة.

ثانياً، "بكتاب" فنريدهم أن يجمعوا رأيهم في كتاب. كما أن رأينا مجموع عندهم في كتاب. وبذلك نملك دراسته والتعمق فيه مجادلتهم بترتيب وعلم. وأما عندما يلقي المعارض أقوال في الهواء فهذا ليس من العلم في شيء. ونريد كذلك أن نأخذ وقتنا في الاطلاع والتشاور والبحث. فنحن لم نستعجلهم فعليهم كذلك من باب العدل أن لا يستعجلونا. فلن نقبل أن نناقش جماعة أو فرد ليس لهم كتاب يجمعون فيه أصول منهجهم وآرائهم التي يريدون منا أن نأخذها ونحيا بها.

ثالثاً "من عند الله" وهذا يشير إلى كون العلم الذي يذكرونه يمكن البرهنة عليه ويكون ينفع الناس ومطابق لسنن الاجتماع والأنفس. باختصار أن يكون كلامهم عن علم. وليس عن شغب مجرد أو

حذلقة لفظية شاعرية، أو تكهن بحوادث لا يمكن أن نستدل عليها وما شابه ذلك من أمور الجهل. فنريد كلام علم نافع بصورة عامة، والأهم من ذلك أن يكون بيناً فصيحاً، فنحن لا نملك من الوقت ما يمكن أن نبذره في حل رموز وطلاسم وشعر. وأسلوب الموعظ والخطابة الجوفاء. أي الدخول في صلب الموضوع ووضع اليد على الجرح. وضرب الرقاب مباشرة بدون لهو ولعب.

رابعاً "هو" أي مُذَكَّر يُعطي. فلا يحيلنا الكتاب إلى كتب أخرى أو أشخاص آخرين. نريده أن يجمع ما يريد أن يقوله بلسان بين مباشر. ويكون هو نفسه يعطي، ولا يقول أن الرأي الفلاني نجد البرهان عليه في كتب أخرى، أو أن فلان من الناس فسر كذا وقال كذا. نريد كتاب يجمع آراءهم مهما طال إن كانت الإطالة ضرورية ولها علاقة بالعلم. فنحن لم نحدد لهم عدد الصفحات والكلمات، لا، فليكتبوا كما يشاؤوا بشرط أن يستعملوا الأسلوب العلمي، والغاية هي أن يحوي كتابهم كل ما يريدون أن يوصلوه لنا من القول. وهذا من العدل إذ نحن قد أعطيناهم كتاباً واحداً فيه كل ما عندنا من آراء. وأما من يرى القرءان معقداص لا يفهم فهذا عيب فيه وليس في القرءان، إذ يوجد من الناس من يرى القرءان كما يرى هذا أي كتاب من الكتب التي يحبها ويراها سهلة "خالية من التعقيد".

خامساً "أهدى" فيجب أن يبني لنا سبب كون أفكاره خير من أفكار القرءان إن أراد أن يبطل القرءان. أو يتغاضى عن المقارنة بين فكره وفكر القرءان ويكتفي بعرض بضاعة علينا. ونحن بالخيار إما أن نشتري بمعروف أو نرد بإحسان.

فكل من يقدم لنا كتاباً بهذه الضوابط الخمسة العلمية فأهلاً وسهلاً بل ونشكره كذلك. وإن لم يستجيبوا لنا فيحق لنا أن نعرض عنهم إذ الحياة أثمن من أن نضيعها بسماع أنكر الأصوات، والعياذ بالله.

فإذن لن يدرك قيمة هذا الكتاب حقاً إلا من يحيط بعلمه. ومن الأحسن لو نحكم على الفكرة بعد الاحاطة بها ولو لدرجة معينة. ومن واقع خبرتي مع القرءان فإنه لا يحوي "أفكار" وإنما فكرة واحدة متوحدة، وكل الباقي يدور في فلكها كالملائكة الحافين من حول العرش. "ولتعلمن نبأه بعد حين".

...-...

٣

مبادئ اقتصاد قارون

١- خلق وسيط للتداول يكون بيدنا. وبذلك نجعل لجهود الناس ومنتجاتهم سعر. وحيث إننا نملك صنع وطباعة النقود كما نشاء فإذن نحن نملك كل جهود الناس وكل منتجاتهم.

٢- اختيار وسيط للتداول سهل الصناعة. وذلك حتى نستطيع أن نصنعه بسهولة وبدون الحاجة إلى المرور بمشقات كثيرة في سبيل صناعته. وكلما قلت حاجتنا للعمال في صنعه كلما كان الوسيط أسهل.

٣- اقناع الناس بضرورة وجود وسيط لتبادل المنافع. إذ لو لم يؤمن الناس بالعملة التي سنخلقها فلن تكون لها أي قيمة. وبالتالي سنضطر أن نفرق بين الناس ونجعلهم يكرهون بعضهم بعضاً حتى يزداد اعتقادهم بضرورة وجود وسيط لتبادل المنافع. فسنحتاج إلى أفكار دينية وإلى قوة عسكرية لاتمام ذلك.

٤- إبعاد عقول الناس عن معرفة مبادئنا. وذلك بأن نجعل المعلمين يخوضون في أفكار كثيرة جداً لا علاقة لها بجذر اقتصادنا. وتحويل مادة الاقتصاد إلى شيء كريه معقد لا يفهم منه شيء. ثم جعل رجال الدين يخترعون عقائد تحول أسباب تعاسج الناس إلى كائنات غيبية وأسباب لا علاقة لها بسوء حال معيشتهم. ثم جعل الجيوش تحارب كلمااقترب الناس من الوصول إلينا وبذلك نشتت انتباههم ونصرفه عن النظر إلينا.

٥- اللسان الذي يخوض في النقود لازالتها يقطع. فنسمح للناس بأن يخوضوا في أمور الدين وأمور السياسة كما يشاؤون. ويكون الخط الأحمر هو كشف مبادئنا أو الدعوة إلى حياة غير حياتنا. وعلامة ذلك أن يشكك المفكر في ضرورة وجود النقود وَ أن يجعل معيار التوزيع هو حاجة الناس وهو المبدأ الحق إلا أنه سيجعلنا نضطر أن نعمل ونكون مثل بقية البشر وهذا ما لا نريده. ولا نصبر على من يحاول كشف عملنا وتحليل جذوره. فعلينا أن نسعى لأن نكون مترفين منعمين ولو كنا سنجعل بقية الناس في أسفل الجحيم.

هذه مبادئ قارون والذي هو رب هامان وفرعون. وفرعون هو الذي يحمي هذا النظام ظاهراً إلا أنه في الواقع مجرد عبد حقير ممثل ظاهري مسرحي يجسم مشيئة قارون. فهنيئاً لكم آل فرعون، نعم كل من يرضى عن فرعون فهو منه ومن آله "ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب" لم يقل "سندخل آل فرعون أشد العذاب" ولكنه قال "أدخلوا" فأنتم أيها الملوك من سيدخل آل فرعون أشد العذاب. فادخلوهم اليوم إن كنتم مؤمنين.

...-...

٤
نقد تعريف الأحزاب للقرءان

يقولون "هو اللفظ العربي، المعجز، الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته، والواصل إلينا عن طريق التواتر".

١- "اللفظ العربي". بل هو اللسان العربي المبين. والفرق أن كلمة "اللفظ" تطمس حقيقة كون سر عظمة القرءآن إنما هي في باطن معانيه. وليس فقط في ألفاظه المجردة. وكلمة "لسان" تشمل الظاهر، وكلمة "المبين" تشمل الباطن. فعرفوا كتاب الله كما يريد الله لا كما تريدون أنتم.

ثم إن كلمة "العربي" تغفل حقيقة الواقع الواحد. حيث إن القرءان يدل على مواضيعة فعلية في الواقع. ولا فرق لو عرفنا هذا الواقع بالعربي أو بالفرنسي. ولذلك ذكر القرءان قبل اللسان الذي نزل به في قوله "إنا أنزلناه قرءانا عربيا"، وفي قوله "علّم القرءان" ثم "علمه البيان". فالواقع قبل اللسان الذي يصف الواقع. وبالتالي كل ما يدل على الواقع الحق فهو قرءان بغض النظر عن لسانه. فالألماني الذي يوفي بالعهد يتبع القرءآن، والعربي الذي ينافق ويكذب لا يتبع القرءان ولو كان من الحفاظ.

فهذا القيد الأول "اللفظ العربي" هو قيد سطحي مادي يكاد يكون أقرب إلى الجاهلية منه إلى علم الإسلام.

٢- "المعجز". بل هو العجيب الهادي إلى الرشد. فكلمة "معجز" توحي بالمفاخرة البدوية، وتشعر السامع بأن القرءان يريد أن يجرح كبرياءه ويذله ويقهره، لا أنه يريد أن يرفعه ويعزه كما قال الحق. ثم إن الجن لم تؤمن بالقرءان لأنهم استمعوا إلى "الاعجاز العلمي" ولا لأنهم كانوا من علماء البلاغة الشعرية، ولكن قالوا بكل وضوح "عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنّا به". فمن أين جعلتم المفاخرة البدوية هي أساس الإيمان بالقرءان؟ شعراء أبناء شعراء.

وأما الآيات التي تذكر الإتيان بسورة من مثله فلا علاقة لها بما يقول الأحزاب، وليس هنا محل التفصيل فيها. فالأصل أن الإيمان بالقرءان هو بسبب كونه مطابق للآفاق والأنفس، وأنه يهدي إلى الرشد. فالنفس لا ترى الحق إلا فيما ينفعها، "فكذلك يضرب الله الحق والباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض". فهو ليس المعجز ولكنه النافع. وكفى بالمنفعة اعجازاً. هذا هو الأصل.

٣- "الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم. بل الذي لا يزال ينزل على كل من يدرسه بعمق ورغبة. فهذا القيد يوحي بانتهاء الوحي كله. وهذا كفر صريح ومحاولة لاطفاء نور الله. لا يزال

القرءآن ينزل على كل من يدرسه. وما محمد إلا رسول للكتاب الظاهري. وأما بحور القرءان فلم يرى الناس منها شيء بعد.

٤- "المتعبد بتلاوته". لا يوجد تعبد بهذا المعنى، إذ القرءآن لا يدرس إلا بفرحة، بل بفرحة شديدة لدرجة البكاء< والراغب في الشيء لا يسمى متعبداً بالمعنى الشائع. ثم أي تلاوة هذه؟ إن مجرد تحريك اللسان اللحمي لا يسمن ولا يغني من جوع. فما الفرق بين الإنسان الراقي والحمار الذي يحمل أسفاراً إذاً؟ حظ الإنسان من الأجر هو بحسب حظه من الدراسة. فلو كان ولابد من لفظ التعبد، فيجب أن تكون "المتعبد بدراسته". هذا القيد هو أبو الجاهلية الجديدة التي بعثت بسبب الأحزاب. لمن تحرك لسانك؟ لله؟ فالله لا يحتاج أن يسمع القرءان منك إذ منه نزل. للملائكة؟ فالملائكة لن تنتفع بشيء منه إذ هي لا تحتاجه أصلاً، فليس عندهم فرعون يريدون إسقاطه، ولا هم متزوجين ليعرفوا متى يعتزلوا نساءهم. فالقرءان إنما هو لك وللناس. "وإنه لذكر لك ولقومك" فأول الكفر بالقرءان هو الاعتقاد أن مجرد تلاوته مجلبة للخير كما يظن الأنعام.

٥- "الواصل إلينا بالتواتر". القرءان كتاب. ومحا محاولة إلصاق كلمة "تواتر" به إلا بسبب رغبة الأحزاب في إنزال القرءان من علوه، وجعله على صعيد واحد مع أحاديثهم، وقال فلان وحدثنا فلان. القرءان أعلى من تواترهم. من يومه الأول هو كتاب، صحف مطهرة. وليس أقوالاً تنقل كالشعر. فهل الكعبة وصلت إلينا بالتواتر؟

٦- فإذن نخلص إلى أن تعريفهم للقرءان من أوله إلى آخره غير دقيق، ويعكس آراءهم الفاسدة عن الكتاب المتعالي. ومن واقع دراستنا لكتاب الله العزيز فإنا نرى أن أي تعريف مختزل للقرءان سيكون غير مجدي ويطمس الكثير من الحقائق والزوايا. وانظر إلى عدد الآيات التي يعمل الله فيها على شرح أو "تعريف" كتابه لترى الفرق بين نظرة النبي إلى كتاب الله، ونظرة الشاعر الشقي إليه. ولعل التعريف الوحيد المقبول هو أن نقول: هو هذا الكتاب الذي بين يديك المعروف. وأما ما عدا ذلك فاذهب وادرس.

٧- ولكن لو شئنا أن نضع تعريفاً يضارع تعريف الأحزاب ويصحح ما فيه لقلنا
" هو الكتاب ذو اللسان العربي المبين، النافع للناس أجمعين، النازل على محمد ظاهراً ولا يزال ينزل على المؤمنين الدارسين، المتعبد بدراسته العميقة، والموجود بيننا بأعلى درجات اليقين".

هذا ما أرى فانظر ماذا ترى.

...-...

٥

نقد فكرة (نزول القرءان منجما) عند الأحزاب.

١- يقول الله "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس"، فظاهر أنه لم يقل "شهر رمضان الذي أنزل فيه من القرءان" أو "بعض القرءان"، بل "أنزل فيه القرءان" أي كل القرءان. وظاهر كذلك أنه لا يكون "هدى للناس" وهو معلّق في "السماء الدنيا" أو ما شابه من خيالات بعض الناس. فالله قد أفصح بكل وضوح عن حقيقة كون القرءان نزل كله في شهر رمضان وأصبح في متناول الناس. وأما قوله "قرءانا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث" فالمعنى هو أنه فرقه سور ونجوم الآيات. أي لم يجعله "جملة واحدة" بل سور مقطعة وآيات مفصلة. وهذا كله ظاهر وواقع. ولكن لما كان الأحزاب لا يهتمون بكتاب الله إلا إن وافق ما عندهم، إذ "كل حزب بما لديهم فرحون" فإن تلاوة آيات الله عليهم بالحق لن ينفعهم شيئاً إلا ما رحم ربي وقليل ما هم. ولذلك قررنا أن نخاطبهم بما عندهم من باب "وشهد شاهد من أهلها" إذ لعلهم ينتفعون بذلك.

٢- هم يقرون بأن كتاب التورية، أو "التوراة" كما يسمونه نزل على موسى دفعة واحدة. ويقرون كذلك بن بعض سور القرءان نزلت دفعة واحدة كالفاتحة والمدثر. ويقولون بأن "التنجيم" يعني أنه نزل آية بعد آية على الأغلب، فاليوم تنزل ثلاث آيات من سورة كذا، وغداً عشر آيات من سورة كذا، وهكذا. ثم يعملون على تبرير فكرتهم هذه عن طريق "الحكمة من نزول القرءان منجما" ويذكرون ما يرون أنه حكمة. ويقولون أن قول الكفار "لولا أنزل عليه القرءان جملة واحدة" يعني "لولا أنزل عليه القرءان دفعة واحدة".

تعالوا نبدأ بنقد الحكم التي يرونها في نزول القرءان "منجما" لنرى هل هذه حكم حقاً أم ماذا.

٣- يقولون ما معناه "لو أن القرآن نزل كله عليه جملة واحدة، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة".

إن نزول الوحي هو أول الطريق وليس نهايته. ونزول الوحي ليس لذة في نفسه حتى يكون له هذا النوع من الأثر. ولذلك أمره الله ونحن "واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك" فما يقولون عنه أنه "وحشة وغربة" يزول بتلاوة الكتاب العزيز ودراسته. فالوحي ليس غاية في نفسه، ولكنه مجرد وسيلة للوصول للعلم وبالتالي العمل. ولا يوجد أي حكمة وراء ذلك. ووجود الكتاب عند النبي هو أكبر أنيس له. فإن كان من أتباع النبي من يرى هذا الأنس العظيم بكتاب الله، فكيف يقال أن النبي نفسه لم يكن يستشعر بهذا الأنس والرقي، وأنه كان يحتاج إلى ما يقولون. ثم إن نزول الوحي الظاهر لا منفعة فيه بحد ذاته، بل نزوله الباطني وفهم معانيه هو النزول الحق. فتنزيل

الكلمات والمباني لا فضل فيه، ولكن تنزيل الفهم والمعاني هو قمة اللذة، ومعلوم أن هذا لا يتم إلا بتلاوته حق تلاوته، ولذلك أمره الله به. "واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك".

ثم ماذا عن المؤمنين بعد محمد الأول؟ فإن كان عدم نزول الوحي الظاهري يؤدي حسب قولهم إلى الشعور بالوحشة والغربة والضعف والتعاسة، فهل حكم الله علينا كلنا بهذا الحكم؟ وأي ذنب لنا؟

بل إن عدم نزول القرءان دفعة واحدة وتواجده كاملاً هو سبب التعاسة والضعف. إذ معلوم أنه لا يمكن لنا أن نفهم أي موضوع من المواضيع إلا بالنظر في القرءان كله. والنظرة المبتورة، نظرة "فويل للمصلين" هي من أكبر أسباب الجهل والفرقة والضلال. فلو لم ينزل القرءان كاملاً في فترة واحدة لدفع كل المؤمنين في هذا الضلال. وحيث أنه لا تفصيل للكتاب إلا بتواجد الكتاب كله، فعندها تقع التعاسة الحقة. فالأمر في الواقع على عكس ما يتصور أصحابنا تماما. وها نحن نرى مصادق ذلك. فنرى الرجل يحفظ بضع سور، ويفتي، فيصفه العلماء ويقولون له "يجب أن تدرس الموضوع بشمولية حتى تستطيع أن تكتشف ما يريد القرءان".فكيف صح عندكم هذا وأن تقولوا أن القرءان لم ينزل دفعة واحدة؟ فهذا المفتي المبتور فعل نفس ما كان سيفعله النبي والمؤمنين الأوائل حيث إنهم لم يملكوا إلا جزء من القرءآن حسب دعواكم. فأنتم تقولون أشياء وتفعلون أشياء أخرى، وللأسف هذه ليست أول مرة نرى فيها صفات الشعراء فيكم.

وإني لم أوفق لفهم السر في إقرارهم بأن "التوراة نزلت على موسى جملة واحدة" بإذن الله طبعاً، الله الحكيم العليم. ولكن لم يسعهم أن يقولوا نفس الأمر في القرءآن ومحمد. ما الفرق؟ لا يوجد أي فرق بين موسى ومحمد. ولا بين نبي إسرائيل والمؤمنين الأوائل. بل هذا من قول الله نفسه "إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً". فإذا قلتم أن الله لم ينزل القرءان "جملة واحدة" لحكم معينة، لكان هذا يلزم أن الله تعالى لم يراعي هذه الحكم عندما أنزل التوراة على موسى "جملة واحدة". ولا مخرج من ذلك أبداً إلا أن تقولوا أن الله تعالى نسي مراعاة هذه الحكم عند موسى.

أنتم تقولون أن محمد أعظم من موسى، وأن الصحابة أعظم من بني إسرائيل. حسناً. ثم تقولون أن الله كلف موسى أعظم مما كلف محمد، وكلف بني إسرائيل أعظم مما كلف الصحابة. ما هذا؟ إنا نعلم أن عظمة الإنسان عند اله بحسب عظمة تكليفه وجهاده في سبيل الله. أيستطيع موسى أن يصبر على كفر فرعون وتعنّت بني إسرائيل بدون أن تنزل عليه التوراة "منجمة" ولا يستطيع محمد أن يصبر إلا إن نزل عليه القرءان "منجما"؟

إني لا أجد صعوبة في فهم عقل الخالق تعالى بقدر ما أجد صعوبة في فهم عقل الأحزاب وأئمتهم. فكل شيء عندهم شديد التضارب، وعديم التناسف، وسفيه الحجج، حتى إنك لا تملك أن تجد نسقاً واحداً لفكرهم. بل لعل نسقهم أنهم لا يملكون أي نسق. فهم كالآلهة، يقولون ما يشاؤون كما يشاؤون، بدون اهتمام بأي شيء، إذ هم يقولون والأنعام توافق، هم يطبّلون والاتباع يرقصون. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٤- الحكمة الثانية حكمة عجيبة حقاً. والعجيب فيها أنهم يقولون في بدايتها شيء ثم ينقضونه تماماً في نهايتها. كالتي "نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا". يقولون "محمد لا يقرأ ولا يكتب، ووسيلته الوحيدة في الحفظ هي التكرار. ولذلك لو نزل القرءان عليه دفعة واحدة أو "جملة واحدة كما يحبون" لصعب عليه ذلك". حسناً. ثم يقولون "كان من عادة النبي أن يكرر ويستعجل ويحرك لسانه بالآيات التي تنزل عليه خشية الضياع، فطمأنه الله بقوله "ولا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرءانه" فتوقف النبي عن فعل ذلك واطمأن بأن الله سيجمع القرءان في صدره المبارك". الله أكبر، الله أكبر !

فكر الأحزاب كالسيرك وحركات البهلوان حقاً. كالقرد الذي يجلس على عجلة، فيتقدم خطوتين ثم يتأخر خطوتين وبذلك يرجع كما بدأ في محله. تعال وانظر.

الفكرة الأولى "محمد يحب أن يكرر القرءان ليحفظه" وهذه الحكمة من نزول القرءان منجماً. ثم الفكرة الثانية "الله منع محمد من أن يكرر القرءان ليحفظه ووعده بجمع القرءان في صدره". هل أحتاج أن أوضح الأمر أكثر؟

حسناً، الفكرة الأولى هي حكمة إلهية، والفكرة الثانية هي آية تمنع النبي من ممارسة الحكمة الإلهية، وكُلاً من عند الله !! أعتقد أنه حتى الراسخون في العلم ستختلط عقولهم من هذه الحركة البهلوانية.

ثم من قال أن محمد كان لا يقرأ ولا يكتب؟ لقد عالجنا هذه المسألة في كتب أخرى. فنشير باختصار هنا. الله يقول "اقرأ"، ويقول "اتل". فماذا يريدون أكثر من ذلك؟ هل يوجد في اللسان العربي مفردات أخرى، أم أنهم من الذين لو رأوا كل آية لا يؤمنوا بها؟ "رسولاً من الله يتلو صحفا" ألا تبصرون؟ "يتلو صحفا". و"اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك". و "وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك" فإذا "بعده" صار يتلو الكتاب ويخطه بيمينه. ماذا تريدون أكثر من ذلك حتى تكفوا عن هذه الفكرة السفيهة؟

فهذه الحكمة البهلوانية باطلة جذراً وأصلاً وفرعاً. وهنيئاً لمن يتبع دين هذا هو عقلهم.

٥- الحكمة الثالثة فيها شيء من المنطق والتنسق. شيء بسيط والحمد لله. يقولون "أن العرب لم يكن عندهم أي قانون، ولذلك تدرج معهم". وَ "نزول الوحي بحسب الأسئلة التي تقع والحوادث الفعلية التي يمر بها الناس أفضل، إذ يستشعرون حضوره وينتفعون به أكثر".

أولاً، عادات العرب هي أعظم قانون عندهم. وهي أحكام يسيرون عليها. فكون العرب لا يخضعون لأي تنظيم كلمة غير دقيقة ولا واقعية. ثم ما علاقة هذا بنزول القرءان دفعة واحدة؟ نعم قد يوجد القرءان ولكن يعمل الناس به بالتدريج. كما نحن الآن. فمثلاً، كتب الطب تحوي علاج ألف مرض. ولكن هذا لا يعني أنه يجب على الناس أن تطبق الألف علاج في يوم واحد. لكل شيء وقت ينفع له. فوجود الآية لا يعني بالضرورة وجوب العمل بها حالاً، وكذلك لا يعني إلغائها، فمثلاً آيات الحرب وملك اليمين حسب فهمكم موجودة الآن في القرءان ولكنكم لا تعملون بها.

ثم لا ننسى أن القرءان لا يمكن أبداً أن نشبهه بكتب القانون الميتة. فالقرءان لا يخلق عبيد قلوبهم ميتة. وآيات الأحكام فيه قليلة جداً بالنسبة لبقية اآيات كما لا يخفى على أحد.

وهكذا نعود إلى نفس الأمر، أنهم يربطون بين فكرتين لا علاقة بينهما في حقيقة الأمر. إلا من بعيد وبخيط رفيع جداً.

ثانياً، حسب فكرة "أسباب النزول" فإننا نحتاج اليوم إلى وحي جديد. إذ عندنا حوادث جديدة، وتساؤلات جديدة. وبالتالي نحتاج إلى نبي جديد حتى نسأله، بل إن تساؤلاتنا اليوم أكثر بألف مرة من تساؤلات بدو الصحراء. ولكنكم لا توافقون على ذلك بالطبع. وتقولون "ما عندنا من كتاب الله وكتب الأحاديث يكفي لأن نستنبط منهما كل شيء" حسناً، أنا أقول أن وجود كتاب اله فقط يكفي لاستنباط كل شيء لكل حادثة في كل زمان ومكان.

فوجود القرءان بين أيدي الناس سيخلق فيهم عقلية تستطيع أن تكشف عن المنفعة دائماً. وبالتالي لا داعي لهذا التعليل الضعيف القائل بأن القرآن نزل منجماً من أجل الإجابة عن بضعة تساؤلات لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين.أو أكثر بقليل.

٦- الحكمة الأخيرة القوية تشبه ما قبلها ولكنها تضيف فكرة "تطور التشريع والناسخ والمنسوخ" ومعلوم أن هذه الفكرة كفر صريح وتحريف عنيد لكتاب الله. ويكفي أنها تزعم أن بعض أحكام الله في كتاب العزيز "أَلغيت" أو "أبطلت" ولكنهم يذكرون كلمة لطيفة وهي "منسوخة". وهذا من عاعدات اليهود كما لا يخفى على العلماء.
٧- هذا ما وجدناه عندهم من أقوى "الحكم" التي اقتضت أن ينزل القرءان منجماً. فهل من عاقل أيها الناس !

...-...

٦
عن بناء فكرة "الله" في العقل.

١- الفكرة هي التي تولد الشعور. والفكرة اللاشعورية أقوى بألف مرة من الفكرة الشعورية الواعية بل أقوى من ذلك. وكلما امتلأت فكرة ما بالتفاصيل، وكلما زاد تفكير العقل فيها وتذكرها واستحضارها في الخيال كلما زادت قوتها ورسوخها في العقل الباطني اللاشعوري. ومثل ذلك كالشيء الذي يوضع على سطح البحر، فلو كان خفيفاً ومن نوع معين فإنه يطفو. هذا مثل الفكرة الشعورية. ولكن لو كان ثقيلاً وضغطنا عليه بقوة كبيرة وكان من نوع معين فإنه يغوص ولعله يثبت في عمق البحر. وهذا مثل الفكرة التي تتحول من الشعور إلى اللاشعور.

٢- على هذا الأساس تنبني فكرة "الله" في القلب. فأول ما يقوم به العقل هو أنه يربط بين اسم "الله" وبين تخيله لقوة عظيمة جداً خلقت الكون وتتحكم به. ولو أنه لا يعرف شيء عن ذلك، فإن عقله يقيس بين قوة الانسان الذي يخلق منزل مثلاً، وفيكبر هذه القوة إلى أكبر مدى يستطيعه عقله. وكلما كبر الانسان كلما استطاع أن يزيد من قوة التكبير في خياله. وبالتالي تزداد "عظمة" الله في قلبه. وهكذا لا يزال يزيد تفاصيل من هنا وهناك ويربطها باسم الله حتى يصل إلى درجة يجعل الله فيها هو "الوجود اللانهائي".

ثم لا يزال "يذكر الله" ويستحضر في خياله ولو بالتجريد لحد ما فكرة "الوجود اللانهائي". ومع مرور الزمن وتكرار هذه العملية عن طريق الطقوس الدينية، أو الرياضات الروحية، أو الأوراد الصوفية، سمها ما شئت فالواقع واحد وهو ترديد اسم اله، والذي هو مربوط الآن بفكرة أخرى وهي "الوجود اللانهائي" فيصبح العقل يطابق بين اسم "الله" وبين "تخيل الوجود اللانهائي". وبالتالي، كلما ذكر اسم "الله" قفز إلى قلبه "الوجود اللانهائي". وهذا الربط بين الأسماء والأشياء معروف ظاهر لكل الناس لا يحتاج إلى شرح. فانظر مثلاً عندما يذكر اسم شخص معين أمامك كيف تقفز "صورته" إلى قلبك، ويصاحب هذه الصورة شبكة من الذكريات والمشاعر التي تعبر عن مواقف هذا الشخص معك أو تجاربك معه.

وتذكر جيداً حقيقة أن الكلمة وعاء. كالكأس. فإذا ذكرت أي كلمة فإن المشاعر المصاحبة لهذه الكلمة تنصب داخل نفسك، وكأن كأس من الماء ينصب على جسمك. ولذلك إذا ذكرت كلمات مثل "تعاسة، بشع، تشويه، خنزير، بول، قيء، مرض، مذموم، ملعون" فإنك تشعر بشعور سلبي معين. وإذا ذكرت كلمات مثل "نعيم، فرحة، ضحك، علماء، كريم، ثروة، ابتسام، جنة، ملك، جمال، علو" فإنك لا إرادياً تشعر بشعور جميل في نفسك. فالكلمات كالكؤوس، وما تضعه في داخل هذه الكلمات من معاني سينصب في نفسك كلما ذكرت هذه المعاني. تضعه أنت أو يوضع لك. فأي كلمة بحد ذاتها لا تحوي شيء. هي مجرد رموز وأصوات. فاسم "الله" قد نعلم أحد الأطفال

أنه يعني الشيطان الرجيم، فإذا كبر هذا الطفل وسمع "الله أكبر" سيلعن المؤمن ويلعن الزمن الذي يعظم الناس فيه الشيطان والعياذ بالله. وفكر مثلاً في المزحة التي قوم بها بعض الشباب عندما يسألهم أجنبي لا يعرف العربية "ما معنى "السلام عليكم" بالعربية؟" فيقولون له "قل "أنا حما"" وأظن أن المسألة واضحة جداً.

وهكذا نقوم بخلق "الله" في عقولنا عن طريق ربط اسمه بمفاهيم معينة وتصورات معينة. فالله مختلف بحسب اختلاف العقول التي تفكر فيه والقيم الراسخة في لاشعور المفكر.

ثم مع الاكثار من "ذكر الله" تصبح "صورة الله" تقفز أسرع إلى عقل الذاكر العابد. ومع تكرار ذكر اسم الله تصبح صورته دائمة الحضور في قلب الذاكر ولو لاشعورياً. وهذه الحالة هي التي يقال عندها أن الذكر قد "فني" في الله، أو "اقترب" من الله وما شابه. ولو كان مفهوم الله عند العقل هو مفهوم متناقض مثل فكرة "الوجود اللانهائى" فعندها يذهب عقله المنظم، وبالتالي يكون في حالة "سكر". ويصبح كلما ذكر اسم "الله" كأنه يشرب كأس من الخمر، وكأنه يتعاطى الهروين أو الكوكاين. وبعد فترة من "الجهاد في سبيل الله" يصبح دائم السكر، دائم العشق، دائم الفناء. وحيث إن الله أصبح هو كل شيء، وهو الوحيد الذي يفعل كل شيء، فعندها سيستخف الذاكر بأي نشاط فكري من جهته، وبالطبع لا يمكن إلا أن يقصد بالنشاط الفكري إلا النشاط الفكري "الواعي أو الشعوري". فيقتل أو يخدر عقله الشعوري. فلا يبقى إلا العقل اللاشعوري. وبالتالي يبدأ يسير في معظم حياته في فكرة "الإلهام" أو "الخاطر" أو "قلبي يقول لي" وما شابه. وهذه درجة عظيمة لمن يحسن استعمالها ويكون قد وصل إلى هذا المقام فعلاً. لأن اللاشعور كما عرفنا أقوى بكثير من الشعور أو التفكير الواعي. فيصبح وكأنه مستمع" لوحي العقل الباطن، والذي يسميه الإنسان السكران "الله" فيقول "الله جعلني أعمل" أو "الله جعلني أقول". ويقول العامة عنه أنه أصبح يسير "على البركة" وما شابه.

ففي نهاية التحليل، ذكر الله هو وسيلة تخدير للعقل الشعوري. ومن بعد ذلك السماح لقوى اللاشعور بالعمل في حياة الإنسان. وهذه درجة عظيمة من الراحة والكبر.

٣- إلى هنا الأمر جيد. ولكن الفرق بين الأنبياء والعباقرة وبين جهلة العوام الذين "يذكرون الله" هو أن العبقري يقضي أكثر وقته في التعلم والملاحظة والدراسة. وبالتالي يمتلئ عقله اللاشعوري بحقائق من الواقع. وأيضاً العبقري يرغب في حياة سلام. ولذلك يستمع إلا اللاشعور بطهر نسبي إذ يصبح هو وكأنه لا غرض شخصي له. هو له أغراض شخصية ولكن هو في نفسه يشعر وكأنه متحرر من كل الأغراض. وهذا بالطبع وهم، ولكنه وهم نافع يجلب نقاء معين في القلب. ويجعل الانسان يسمع إلى النافع من اللاشعور. وبعد ذلك يتحرك أو يقف، وترى أعماله

وكأنه يسير وفق خطة مرسومة بدقة، ولكن إذا سألته هو "هل خططت لشيء من ذلك" فإنه على الأغلب سيقول "لا أعرف".

أما الجهلة من العوام وأشباههم فإنهم يتركون عقلهم اللاشعوري وكأنه شبه مزبلة. ثم يخدرون عقلهم الواعي. فماذا تكون النتيجة؟ النتيجة هي إنسان لا هو عبقري ولا هو مفكر محترم. أي بهيمة في ثوب بشر. وهذا المرض من أكبر الأمراض التي تصيب البشر عامة، وأهل الدين منهم خاصة. يريدون أن يتوكلوا على الله ولكن لا علاقة لهم بالله. إذ يظنون أن الله شخص منفصل عنهم، وهو سيحركهم ويوفقهم كما يحرك رجل المسرح ألعابه بتحريك الخيوط. ولذلك تمتلئ حياتهم بالتعاسة وفي نفس الوقف يصرخون "يا الله انجدنا ! يا الله لماذا تفعل فينا هذا!" ألا إن الله لم يظلمهم ولكن أنفسهم يظلمون.

العقل اللاشعوري لا ينفع إلا العلماء. فالعلم بدون ذكر لله يكون كالطفل الذي يريد أن يرفع مبنى ضخم بيده. وذكر الله بدون التفكير الدائم والدراسة العميقة يكون كفقير يعتمد في نفقاته على خزانة فارغة. الذكر والفكر وجهان لعملة واحدة، عملة النبوة والعبقرية. ولذلك قال الكتاب في آية واحدة "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. ويتفكرون في خلق السموات والأرض" لاحظ "يذكرون" و "يتفكرون". ولاحظ أنه حصر الذكر بالله، والتفكير بالخلق. ولم يقل "يتفكرون في الله" لأن الله وذكر الله كما عرفنا خمر يسكر العقل الواعي لكي يتحرر اللاشعور بجبروته. افهم هذا جيداً فإنه من أهم، بل لعله أهم قاعدة في كل الحياة. ولعلك لن ولا يمكن أن تتعلم شيئاً أنفع لك من هذه القاعدة. وحياة غير قائمة على الذكر والفكر ليست حياة. لا، هي حياة، ولكن حياة في دركة معينة من دركات جهنم ولا شك.

٤- الذكر للراحة والفكر للكبرياء. هذه قاعدة القواعد، وسر حياة أرقى الأنبياء.

...-...

٧

جوهرة القرءان الكبرى

١- "هو الأول والآخر والظاهر والباطن. وهو بكل شيء عليم"

٢- النصف الأول يحوي الوجود اللانهائي والتأله والعشق. والنصف الثاني يحوي النور التام والدراسة والعلم. أي هذه الآية الكبرى تجمع نهاية سفر الذكر الأعظم، ونهاية سفر الفكر الأكبر.

لا يوجد على وجه الأرض، في أي زمان ومكان، في كل المذاهب والطرق والأديان، لا يوجد على الإطلاق من يرغب في تحصيل أي شيء غير أحد هذين الأمرين، هذا إذا نظرنا بعين التحقيق. وهذا هو التفصيل.

٣- أما "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" فتأتي بالشعور بالكبر التام. إذ كما عرفنا، أن الكبر جوهر الإنسان. فهو يريد أن يشعر بأنه أكبر شيء في الوجود. وهذه الكلمة تذكر باتصال كل الوجود بكله، أي إذا كان الوجود لا نهائي فأنت أيضاً لا نهائي. وهذا هو المطلب الأخير لكل نفس من حيث السكر والوهم.

٤- وأما "وهو بكل شيء عليم" فتأتي أيضاً بالشعور بالكبر التام ولكن ليس على سبيل التوهم والسكر، ولكن عن طريق السعي إلى الفهم. إذ كما عرفنا، فإن القيم التي في "تصور الكمال" هي التي تحدد مقدار الطاقة التي ستتولد في هيكل النفس. فلما يجعل الإنسان في تصوره وجود نفس عليا تعلم كل شيء، ثم ينظر إلى واقع حاله فيرى أنه يعرف قليلاً أو كثيراً، فإن الفجوة بين واقعه وتصوره ستؤدي إلى شعور بالألم بنفس نسبة الفجوة. وبعد ذلك ستتولد رغبة في الاكتمال تحول الطاقة السلبية التي أنتجها الألم إلى طاقة إيجابية للعمل على سد الفجوة. ولما كانت القيم مطلقة، أي "وهو بكل شيء عليم" فستتولد في النفس طاقة عظيمة تكفي لكي يسعى الإنسان ليكون هو نفسه "وهو بكل شيء عليم"، وبما أنه يسعى فإنه سيصل وسوف يعطيه ربه حتى يرضى. "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" فكل ما تسعى إليه ستحصل عليه. ومن أصدق من الله قيلاً.

٥- فهذه الآية زوج: التأله والدراسة، أو التأله والتعلم، أو السكر واليقظة، أو الظلمات والنور. ومن هذا الزواج المقدس سيولد المسيح. أي إنسان يمسح كل الآلام وينشر النور التام. والناس في هذا على درجات. وكلا وعد الله الحسنى. فاستبقوا الخيرات. فلعله من أعظم الخير أن لا يمر على الإنسان يوم إلا ويتلو فيه هذه الجوهرة الإلهية بتدبر وتأله. بل عشر مرات في اليوم. والحمد لله على نعمة كتابه.

...-...

آخر إنذار للعرب.

١- "وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرءان مهجورا". وَ "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" وَ "الأعراب أشد كفراً ونفاقاً" وَ "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم".

٢- أمامنا ثلاث وقائع يمكن أن تختصرها جملة واحدة : العرب الأوائل الذين نزل عليهم القرءان هجروا القرءآن، والقرءان لا يكون إلا للعرب.

وأمامنا انذار وهو أن هؤلاء "الأعراب" الذين نبذوا الكتاب سيرفع عنهم الكتاب وسيعطى إلى قوم غيرهم.

٣- ولكن بما أن "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه" فإذن هؤلاء القوم الآخرين يجب أن يكون أيضاً عرب. أي يعلمون اللسان العربي. وبما أن الآية تقول "وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم" فهذا يدل أن القوم الآخرين حالياً ليسوا من العرب، إذ لو كانوا لما اعتبروا أنهم قوم "غيرنا". فكيف نفهم أنهم ليسوا عرباً، أنهم يجب أن يكونون عرب؟ الجواب: هم الآن ليسوا عرب ولكن سيقدرون الإسلام حق قدره بطريقة أو بأخرى، ثم سيختارون أن يحملوا الكتاب كالأنبياء لا كالأعراب الحمير.

٤- من يعفرون اليوم بأنهم "الأمة العربية" هم بنظر القرءان "الأمة الأعرابية". وقريباً إن لم يكسر الأعراب كل الأوثان التي وضعها آباءهم بجانب الكتاب وفوق الكتاب وكل ذلك الرجس، فإن الله سوف يمقتهم ويذلهم ذل الأبد، وسيعطى القرءان لأقوام نراها اليوم أنها "ضالة" و "كافرة"، وعندها سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

٥- "فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون".

...-...

٩

نقد معارضة الأحزاب لنزول القرءان في رمضان.

١- يقول الله عز وجل "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرءان هدى للناس" ولم يقل أنزل فيه بعض القرءان. فالقرءان كله نزل في هذا الشهر. والأحزاب يعلمون ذلك جيداً ولا مخرج لهم إلا بأن يخترعوا فكرة تقول "نعم إن القرءان كله نزل في شهر رمضان، ولكن نزل إلى السماء الدنيا" وبالطبع هذا كلام غير مفهوم ولا أحسب أنهم أنفسهم يفهمونه. فما معنى "السماء الدنيا"؟ وما الفائدة من أن يخبرنا بذلك أصلاً؟ ثم كيف يكون "هدى للناس" إن كان معلقاً في مكان خيالي لا وجود له إلا في رؤوس البعض؟ إن القرءان من عند الله إلى قلب محمد. فلا تبتكروا الأوهام.

وهنا قد يوافق بعض الأحزاب، ويبدأون بالاعتراض على الفكرة موضوعياً. فيقولون "لو نزل كله في رمضان إذاً كيف يصح إخباره عن حوادث حصلت بعد ذلك، مثلاً كقوله في سورة التوبة عن الثلاثة الذين خلفوا وما شابه ذلك من أحداث". والحق يقال إن هذا الاعتراض يبشر بالخير. إذ هو من الحالات النادرة التي نرى فيها بعض الناس يبذلون جهداً في القرءان والتفكير فيه. على أية حال، تعالوا ننظر في هذا الاعتراض.

٢- أولاً، إن كون القرءان نزل كله في شهر رمضان ليس اجتهاداً في ظن، ولكنه مثبت بكلام قطعي. ولذلك يجب أن نوفق بين كل ما يظهر أنه يخالف هذا الكلام وبينه. فلا مجال لانكار النص القطعي.

ثانياً، يقول الله "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فإنما نعرف أن هذه الآيات المكتوبة حق عندما نرى تحققها في عالم الواقع. ولذلك يذكر أموراً ثم تتحقق.

فإذن لا محل للاعتراض.

٣- ولكن نحن نعلم أن هذا الكلام والاستدلال لن ينفع إلا قلة. والأكثر يريدون أدلة من الأمور التي اعتادوها. فمن باب "وشهد شاهد من أهلها" سأذكر ثلاثة أمثلة تثبت أن الآية كانت موجود بين الناس يقرأونها ولم تتحقق في الواقع بعد، ثم تحققت.

أولاً، قصة الروم. فعندكم أن هذه الآيات نزلت، ثم تحققت لاحقاً.

ثانياً، آية "سيهزم الجمع ويولون الدبر" عندكم أنها نزلت ثم تحققت في ما تسمونه "معركة بدر".

ثالثاً، قصة أبي لهب. حكمت عليه الآية بعدم الإيمان والتوبة وكان لا يزال حياً يملك أن يتوب. ولكن صدقت نبوءة القرءان ووقع الأمر كما قال الحق.

فكما أنكم استطعتم أن تفهموا هذه الحوادث افهموا تلك.

"ومن أصدق من الله قيلاً".

...-...

١٠
معيار الإيمان

١- سمعتم أن الأحزاب يقولون بأن قول الإنسان لكلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" دليل على دخوله في الإسلام، والإيمان بعد ذلك أمر لا يفهم على وجه التحقيق. وسمعتم أن للدين طقوس معينة وأعمال من عملها فهو من الدين وفي حزب الله. فمعيار الإيمان عندهم كلمات يرددها اللسان وبعض أعمال لا يعجز عنها أكبر منافق.

يشبه هؤلاء وحالهم مع دين الله الذي استأمنهم عليه، كملك استأمن أميراً على بيته. فقام الأمير وفتح البيت لكل القردة والخنازير والحمير والبهائم وجعلهم يسكنون في بيت الملك ويجلسون في مجالسه، وينامون على سريره. حتى إذا مرّ الملوك أمام هذا البيت ونظروا إليه قالوا "هذا ليس بيت ذاك الملك العظيم، إذ ذاك بيت مطهر وهذا مأوى للكلاب والخنازير. تعالوا نستمر في البحث" وليس للملك إلا هذا البيت فمن أضله ضاع إلى الأبد. هكذا فعل الأحزاب في الدين، جعلوا سقفه شديد الانخفاض حتى يستطيع الأقزام أن يدخلوا فيه وينتسبوا إليه. وظاهر أنهم فعلوا ذلك تكثيراً لعددهم، إذ من الكثر يخلقون الجيوش ويكسبون الأموال والمعاش والتقدير.

وإن الله أمرنا أن نطهر بيته للعلماء، ألسنا من إبرهيم.

٢- الحرمات العشر في سورة الأنعام هي القيم التي علينا أن نحافظ عليها لكي نحيا في مجتمع مسالم إلى درجة ما. وهذه هي الإسلام. فلا يوجد كلمة ولا يوجد طقوس، كل من فهم هذه الحرمات العشر وعمل لحفظها فهو مسلم. فهذا هو العامل المشترك بين كل الناس. ولا نحتاج إلى كثير عناء لفهمها والاقتناع بجدواها. وأما لماذا نحفظها، فهذا له بحوث خاصة ليس هنا محل تفصيلها. اذهب وادرسها بنفسك.

٣- وأما معيار الإيمان، أي الدخول في زمرة القلة الراقية والانتساب إلى القرءان فلا يوجد إلا طريق واحد للوصول رليه، ويوجد أثر واحد ضروري أن يظهر حتى يعرف الانسان أنه من أهل القرءان.

أما الطريق فهو دراسة القرءان، بسعة شديدة، وتعمق شديد. والمداومة على ذلك بفرحة.

وأما الأثر فهو أن تمسك القرءان وتبكي من الفرح، الفرح بأن هذا الكتاب نزل وأنت تقرأه. عندها تكون بدأت تعرف قيمة القرءان الحقيقية وقدره الحقيقي.

٤- فإذن معيار الإسالم هو حفظ الحرمات العشر. ومعيار الإيمان البكاء لشدة الفرحة بالقرءان. فدراسة الكتاب شخصياً هي الطريق الوحيد للدين. فالدين أفكار من فهمها فهم الدين، ومن عمل بها فهو من الدين. "ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون.

...-...

١١

لماذا سمّاهم "الجن" ؟

١- من الظاهر أن الشيء يسمى ويعرف بحسب وجهة نظر المسمي الناظر. فقد يكون هناك شيء واحد، فترى أنت فيه شيء، ويرى صديقك فيه شيء آخر، فتضع أنت عليه اسماً يناسب وجهة نظرك، ويضع صديقك عليه اسماً آخر يناسب وجهة نظره. فمثلاً الجبل. قد تسميه أنت "حجر كبير" ويسميه صديقك "آية من آيات الله" وهكذا. فالشيء واحد، ولكنه يختلف بحسب وجهة نظر الناظر وذوقه.

٢- إذا نظرنا من العين التي تقول أن الجن كائنات مخفية مستورة عن أعيننا ولذلك تسمى "الجن" من الاستتار والخفاء، كالجنين المستور في رحم الأم، وكالمجنون الذي اختفى عقله. فإن تساؤلاً عظيماً يطرأ لنا وهو هذا: إن الجن مستورين عن أعيننا نحن ولذلك يناسبنا أن يُسمون بالجن، ولكن القرءان كلام الله، ومن وجهة نظر الله فلا شيء مخفي، فلماذا سماهم "الجن"؟ ألم يكن من المفترض أن يسميهم الله بحسب وجهة نظره هو، وبالتالي لا يكون لكلمة الجن أي معنى؟ فتعالوا ننظر.

٣- أمامنا احتمالات: فإما أن الجن ليسوا كائنات مخفية والتفسير القائل بذلك هو تفسير خرافي وبالتالي علينا أن نبحث عن تأويل آخر لمعنى الجن. ولهذا الاحتمال ما يؤيده، حيث إن آيات أخرى في القرءان تشير إلى أن الجن من البشر وهم علماء بني إسرائيل. ولذلك قالوا "إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى" وهذا ليس خاصية اللقرءان، إذ الزبور والإنجيل كتب نزلت من بعد موسى كذلك، إلا إذا قلنا أن الزبور والإنجيل هم فروع من كتاب موسى وإني أميل لهذا. على أية حال، فإننا نفترض صحة هذا التفسير القائل بأن الجن كائنات مخفية، لا لأن عليه برهان بحد ذاته، ولكن لأننا نريد أن نرى إلى أين سيأخذنا. وحيث إنه احتمال فيالقرءآن، فلا شك أنه يهدي إلى خير بوجه أو بآخر.

وإما أن القرءآن قول البشر ولذلك تكلم من وجهة نظر البشر. وهذا كلام حق من أحد الوجوه، ولكننا نفترض أن القرءان ليس كلام بشر لأنه يريدنا أن نفترض ذلك فيه كمفتاح لفهمه. ومن واقع تجربتنا مع القرءآن نرى أن الأخذ بهذا الافتراض له قوة كبيرة تحث على التعمق والتساؤل والجدل. وهذه الأمور دائماً تفضي إلى خير. ولكن إذا اعتبرناه كتاب بشري كأي كتاب آخر، فإننا سنحرم من التعمق، حيث إن القرءان يستعمل أسلوب في ظاهره يثير الاعتراض عليه، ولكنه ما إن يفترض الدارس أن القرءان كله حق، فإنه سيضطر إلى التعمق لازالة هذا الاعتراض الظاهري، وعندها ينكشف السر وتفيض الأنوار. فكأن ظاهر القرءآن باب، وفكرة "القرءان كلام الله وكله حق" هي مفتاح هذا الباب. وهذا الباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

فأسلوب القرءان يلزمنا علمياً بأن ننظر فيه وكأنه كلام الله المتعالي عن الباطل والضرر. وقد أثبت البرهان والمنفعة أن هذه فكرة راقية.

وبناء على ذلك، فإنا إذا اعتبرنا الجن كائنات خفية عنا، واعتبرنا القرءان كله حق، فإن لا يبقى أمامنا إلا احتمال أخير وهو: أن الله يرى العالم من عين الانسان. ولذلك فإنه يعرف الأمور بحسب نظرة الإنسان لها وليس بحسب نظرته هو المجردة. وهذه فكرة جبارة لا أحسب الناس يقدرونها حق قدرها إلا بعد قرن أو أكثر.

٤- "الله يرى العالم من عين الانسان" ماذا يترتب على ذلك وماذا ينبني على هذه القاعدة؟

أولاً، لا يوجد شيء في القرءان إلا ويستطيع الانسان أن يفهمه حيث إن القرءان مكتوب من وجهة نظره.

ثانياً، القرءان غير منفصل عن الإنسان. وكأن القرءآن هو جوهر كل إنسان. وما هذا الكتاب العربي إلا محفز أو مثير لهذا القرءآن الباطني ليظهر إلى الوعي، ولذلك إذا فهمت مسألة قرءانية ثم وجدت قلبك غير مطمئن فاعلم أنك لم تفهم المسألة بعد. "ألا بذكر الله تطمئن القلوب". فروح القرءان هي روح الانسان. وهذا يعني أن القرءان العربي هذا لم ينزل إلا لأن الناس غفلت عن جوهر نفوسها. وانقطعت صلتها بهذا الجوهر، وبالتالي لم تستطيع أن تستمد منه القوة والعلم ولذلك نزل. ويدل على هذا الكثير من الآيات منها "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام". ومنها "وتضحكون ولا تبكون" ويبني على ذلك أن أحسن الناس اتصالاً بجوهر نفوسهم هم أسرع الناس قبول للقرءان. وأي إنسان تعيس النفس عابس الوجه لا يمكن أن يكون من أهل القرءان.

تعالوا نتأمل قليلاً في هذه الفكرة، أي "القرءان جوهر كل انسان". كل ما في العالم يخلق وفيه كل ما يحتاج إليه ليحيا بحسب السنة الربانية. "كل قد علم صلاته وتسبيحه" ونحن لم نسمع يوما بأن الأسود افتتحوا جامعات لتعليم أساليب السيطرة على الغابة مثلاً، ولا أن النحل عندها جامعات هندسة لتتعلم كيف تصنع خلاياها. وكذلك في تعالمهم مع بعضهم البعض. والوحيد المستثنى من ذلك هو الإنسان. فهل هذا الاستثناء دليل أفضلية أم دليل دونية ؟ الطفل يولد ويرضع بدون تعليم. وهذا دليل قوي على أن العلم الذي يحتاجه الانسان موجود فيه بدرجة أو بأخرى.

وظاهر أن عند الانسان الاستعداد لكل شيء. فهو ليس كأي جنس من أجناس الحيوان. فمثلا إذا جلس الحمار بجانب كلبة مئة سنة فإنه لن يجامعها. ولكن اجعل انسان بجانب حمار،

وبدرجة معينة من الكبت الجنسي والمرض النفسي فإنه قد يضاجع الحمار كما هو معلوم. ثم إن الحيوانات كلها لا تأكل إلا ما ينفعها بدون تعليم، إلا الانسان فإنه الوحيد الذي يأكل أي شيء. بل حتى الطعام الضار، بل حتى يأكل المسامير والشفرات الحديدية في بعض الأحيان كما عند المرضى. فمهما قلنا ومهما تفلسف بعض الناس، فإن في قلب الانسان دليل على أنه غريب عن هذا الجسم. والرغبة في الكبر هي أكبر دليل على ذلك بجانب الأدلة الأخرى. الوحيد الذي يضحي براحته من أجل الشعور بالكبرياء هو الانسان، والوحيد الذي يذل إخوانه ليشعر بالكبر هو الانسان.، والوحيد الذي يشعر بالكآبة وينتحر لأن الواقع لم يخضع لرغباته هو الانسان. وأخيراً وليس آخراً فإن الوحيد الذي يرى أنه منفصل عن الطبيعة هو الانسان. فإذن جوهر الانسان ليس من عالم الأجسام هذا.

وكما أثبتنا في أماكن أخرى، فإن العالم العقلي الأعلى الذي يحكم عالم الأجسام هذا موجود فعلاً. والنفس المتعالية عن عالم العقل والجسم موجودة فعلاً، أي الروح، وحيث إن الانسان يحوي في نفسه الرغبة في الكبر، وكذلك يحوي ولو بعيداً في لاشعوره الفكرة التي تقول أنه منفصل عن الطبيعة، فيظهر أن جوهر النفس هو الروح المتعالية، وهذا هو الجذر الحقيقي الذي يشرح سر كون "القرءان جوهر الإنسان". فالنظام أو الحكم القائم على عالمي العقل والجسم، هذا الحكم هو في الواقع موجود في عمق الإنسان. وهذا هو سر كون الله يسمي الأمور بحسب وجهة نظر الإنسان، إذ روح الانسان هي روح الله "ونفخت فيه من روحي". وحيث إن كل العوالم مسخرة للانسان فهذا وكون الانسان خليفة الله وهذا يلزم كونه عارفاً بحكم الله وإلا فكيف سيخلفه، فإذن كل عالم القرءان وحكم الله موجود في قلب الانسان. وما القرءان العربي إلا مذكّر.

ثالثاً، علينا أن ندرس ونحل الأسباب التي تغطي على جوهر النفس هذا. ونعرفها جيداً. ثم علينا أن ننشرها في كل العالم. وبذلك نكون قد نشرنا القرءان في كل مكان في العالم ولكل الأقوام بدون أن نقع في خيانة الترجمة وتفاهتها. "كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون" فمهمتنا الأولى ليست حشو عقول الناس بالأفكار والأحكام والجدل، ولكن تصفية القلوب من هذا الذي ران عليها. ثم نشر الأفكار الإلهية أمر ميسر. وأما الدعوة قبل تزكية القلب فتكون كمن يحاول أن يسمع الصم. لا تفلح أبداً. ولذلك قال "يتلو عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة" فالتزكية قبل التعليم. ولا شك أن التزكية نوع من التعليم، ولكنه التعليم الموجه إلى شفاء القلب، والتعليم هو التعليم الموجه لجعله يقوى ويكبر، مثل ذلك في الجسم، كجسم مريض. أولاً علينا أن نشفيه. ثم علينا أن ندربه رياضياً ليكون بطل العالم في كمال الأجسام. ومعلوم أنه لا يدخل مجلس الله إلا من أتى الله بقلب سليم. عسى أن نكون منهم.

رابعاً، بما أن كل إناء ينضح بما فيه، وبما أن جوهر النفس هو القرءان، فإذن كل ما يصدر عن الانسان هو قرءان. وهذا يعني أنه علينا أن نحلل الانسان كما نحلل القرءان. وأيضاً أنه علينا أن

ندرس كل فكرة تصدر من أي انسان على أنها فكرة عظيمة بوجه أو بآخر وأنها تحوي حقاً ولو في باطنها البعيد. فمهما كان السواد الذي على القلب، فإن الجوهر سيظهر بدرجة أو بأخرى، حتى لو لم يعلم المتكلم نفسه أنه يقول الحق، أو يقول حق. ولهذا قال "سنريهم آيتنا في الآفاق وفي أنفسهم" كل الآفاق وكل الأنفس. فأينما نظرت فأنت تنظر إلى قرءان. "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم" فمن الناس من يرى ويفهم ويقدر ومنهم من يعمى. ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إذ إنما يتذكر أولوا الألباب.

خامساً، وأخيراً وليس آخراً، نستنبط أن دراسة القرءان العربي هي من أحسن الوسائل لفهم جوهر الله والخلق والنفس. بل إن حقيقة هذه الدراسة هي أن يرى الانسان أنه يحوي في نفسه كل شيء، أو قل أن نفسه تسع كل شيء. إذ من المعلوم جيداً أن نفس الإنسان لا ترضى وتطمئن إلا إذا تحقق لها الكبرياء المطلق، و"ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

٥- وهكذا نخلص إلى أنه سماهم "الجن" لكي نتذكر أن جوهرنا هو عين جوهوه. فما أسعد من تذكر هذا ! "فطوبى لهم وحسن مآب".

...-...

١٢
نظرة في "رب اشرح لي صدري".

١- يعارضني الكثير من الناس في كثير من أقوالي، ولو باطنياً، ويستندون إلى نفس المبدأ الذي استند إليه الذين من قبلهم، تشابهت قلوبهم، ويقولون "ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق" فمعيار الباطل عندهم هو مخالفة السلف أو ابتداع من خلف. ومنطقهم بسيط وواضح، يقولون: ومن أنت حتى تأتي بما لم يأت به الأولون !! وقد أجاب الله عن هذا التساؤل أو الاعتراض بكثير من الآيات والزوايا. وأريد هنا أن أجيب عنه من زاوية مختلفة قليلاً. وهي أني أريد أن أشرح آية، وأريدهم أن يقارنوها بكل تفاسيرهم لينظروا هل رأى آباءهم نفس ما أرانا الله أم ماذا؟ وسنرى كيف أن رؤية آباءهم ومفكريهم بل حتى وعوامهم إلى يومنا هذا تنظر إلى الآية بطريقة تدل على غفلة شديدة وسطحية لا عقل فيها. وهذا مجرد مثال بسيط عميق على أن الأوائل بل حتى العلماء إلى يومنا هذا قد ينظرون إلى الكتاب بطريقة ثم يأتي الله ويفتح لعبده بطريقة أخرى ما سمعوا بها من قبل ولا رأها بالرغم من ظهورها. ولعل في هذا درس راقي لمن يريد الترقي.

والسبب الآخر هو السبب الأهم الذي دفعني للقيام بهذه النظرة في الآية المباركة هو شدة تعلقي بها منذ عقلت القرءان أو قل بدأت أعقله. فقد كانت هذه الآيات الأولى من سورة طه العظيمة هي من الآيات التي عملت على حفظها في قلبي حتى أفكر فيها على الدوام وأصلي بها واستوحي منها. ولعل الله يفتح لنا فنتذكر شيء من كنوز هذه الآية العالية والتي قطوفها دانية. فتعالوا ننظر.

٢- ما الفرق بين "رب اشرح صدري" وَ "رب اشرح لي صدري" ؟

إن الغفلة تصد العقل عن ملاحظة الفروق في القرءان. وابنها الكسل وأخوه الاستعجال هما السبب في ضياع أو كتم أو نسيان الكثير من نور القرءان وأسراره. ومن هنا جعلنا أحد قواعد منهج النبوة في فهم القرءان هو "إذا غيرت الآية، وكان فهمك لها بعد التغيير هو هو فهمك لها قبل التغيير، فاعلم يقينا أنك لم تفهم شيء".

يغلب على الناس الاعتقاد بأن "رب اشرح لي صدري" تساوي تماماً "رب اشرح صدري". ويغلب عليهم الفهم الشاعري للقرءان، فيعتقدون أن الشرح هو الراحة وما شابه من المعاني التي لا تفهم، وتكون بعيدة عن جوهر القرءان وهيكل نفس الانسان.

أولاً، لو أراد موسى الراحة النفسية فقط والانشراح الباطني بالمعنى المتعارف عليه عامة لاكتفى بقوله "رب اشرح صدري". ولكن إضافة كلمة "لي" ينفي ذلك أو يضعف احتماله بقوة.

وثانياً، إن موسى في تلك اللحظة كان يسمع كلام الله من الله، والكتاب يقول "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" فإن كان مجرد ذكر الله سبب لراحة النفس واطمئنان القلب، وهو جوهر معنى الانشراح عند العامة، فما هي حال نفس الانسان الذي يكلمه الله مباشرة؟ فلو كان موسى يطلب الراحة النفسية بعد أن سمع ولا يزال يسمع ويحاور الله نفسه، فأي نفس هذه! وقوله "اشرح" يعني بحسب العامة أنه كان منقبض النفس. ودعوته هذه كانت بعد كلام الله له في المقطع الأول من سورة طه. فإن كان حضور الله وسماع كلامه مباشرة لا يكفي لكي ينشرح الصدر ويزول الانقباض، فيا لتعاسة بني ءادم ! وبالتالي يصبح الحكم القائل "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" غير واقعي وبالتالي باطل، حاشا لله.

وثالثاً، ما علاقة هذه الدعوة بالكلام الإلهي الذي توجه إليه والمتضمن لتعاليم وأسرار كثيرة؟ وما سر كون هذه الدعوة هي أول كلمة أو دعوة تصدر منه بعد فراغ الله من مقطعه الأول من الحديث؟ ألم يكن من الأنسب لو قال موسى "رب اشكرك لأنك تفضلت علي وكلمتني من دون الناس" وما شابه؟ وظاهر أن الفهم العامي القديم لهذه الآية لا يفتح أي مجال للإجابة عن مثل هذه التساؤلات الكبيرة التي تهم من يجعلون القرءان أساس بيوتهم ودراسته ماء حياتهم. ولاشك أنها تعتبر من الترف الزائد لمن لا يعرفون من الدين إلا الحلال والحرام ودخول الجنة الوهمية والهروب من النار. ومن هنا وضعنا قاعدة مهمة جداً لتكون أيضاً كمفتاح لخزائن القرءان وهي "الدليل أنك فهمت هو أن ينفتح لك أبواب لفهم أعمق وأوسع" وهذه القاعدة من أسرار قول الحق "ولئن شكرتم لأزيدنكم". وبمفهوم المخالفة يكون انسداد الأبواب دليل الجهل والعياذ بالله "لا تفتح لهم أبواب السماء".

فإذن بناء على ما فات نستطيع أن نعرف بقدر جيد من اليقين النسبي بأن فهم الناس لهذه الآية فهم مبتور ميت. فكيف أغفل قديسو الأحزاب مثل هذه الاعتراضات على فهمهم لهذه الآية! أم أنهم بشر مثلهم مثل بقية البشر، بل أغفل منهم في بعض الأحيان.

حسناً، كفانا قتالاً، وتعالوا ندرس بسلام.

٣- "صدري". الصدر يدل على مستودع قيم الانسان وأفكاره كلها، الظاهرية والباطنية، الشعورية واللاشعورية. "اشرح" من الشرح أي التفصيل الكامل، مثل تشريح الجسم لاكتشاف ماهية وأعضاءه وكيفية ترابطها وما إلى ذلك. ومقول التلميذ للأستاذ: يا أستاذي، اشرح لي هذه المسألة فإني لم أفهمها بعد.

"رب" تدل على العقل، إذ بالعقل يتربّى الانسان. ومما يشير إلى ذلك هو كون كلمة "رب" من حرفين، أي زوج، ومعلوم أن العقل زوج، ظاهر وباطن، وإن العقل لا يعقل إلا اثنين فما فوق، ومن هنا اسمه "عقل". وتدل أيضاً على كتاب الله. إذ هو مظهر الربوبية في الناس وبه نتربى.

فإذن موسى يرغب في أن يفهم نفسه الحالية، وكل ما فيها من قيم وترابطات وأفكار. ويستعين بذلك بعقله وكتاب ربه. ومن هنا نفهم سر كون هذه الدعوة هي أول ما يطلبه. وذلك لأن فهم تعاليم الله والعمل بها يعتمد على ما في باطن النفس من أفكار وقيم، خاصة القيم الباطنية اللاشعورية، أي التي لا يعرف حتى الشخص نفسه عنها شيء. وهذه الفكرة هي من أهم، إن لم تكن أهم فكرة في القرءان كله. إذ هي بداية حياة الانسان العاقل الواعي. وبداية فهمه للكتاب. ولذلك بدأ بها.

فلا يكفي أن يوجد كتاب الله بين الناس حتى تتم الاستنارة. ولا يكفي حتى دراسة كتاب الله بعمق لكي تتم الاستنارة. بل يجب أولاً وقبل كل شيء أن يفهم الانسان "صدره" وكل ما يحويه. إذ إن الانسان يولد ويتربى وتنزرع فيه الكثير الكثير من القيم والأفكار والمشاعر والتي لا علاقة له باختيار أي منها. أضف إلى ذلك تجارب الطفولة والحياة في الأسرة أو أثناء البلوغ، وكل تجاربه التي خاضها بنفسه أو سمع عنها، أو رآها، أو تخيلها. وهكذا يحشى الانسان بآلاف بل ملايين الأفكار. وتختفي كلها في العقل الباطن اللاشعوري، وتحكم النفس وتوجهها مدى الحياة. ويصبح حكمه على كل شيء نابع من هذه الأفكار اللاشعورية، وهو يحسب في الكثير من الأحياء أنه "يتبع الحقيقة" وما شابه ذلك من أوهام.

فمثلاً، أم تقابل يوماً أحد الأشخاص وارتاحت نفسك إليه فوراً بالرغم من أنك لا تعلم عنه أي شيء. ألم تسمع يوماً أغنية فشعرت بغم في نفسك بدون أن تعرف أسباب ذلك. الأفكار اللاشعورية هي السبب في كل ذلك. السبب الباطني الحقيقي لمثل هذه الحوادث وغيرها بل العلم يظهر أنها السبب وراء كل شيء. والعقل الظاهر الذي يحسب أكثر الناس أنه لا عقل غيره، إذا قارناه بالعقل الباطني تكون النسبة مثل النسبة بين كأس من الماء والبحور السبعة. لعل هذا يظهر لك أهمية دعوة موسى.

فالآن إذا سمعت تعليم من تعاليم الله، ماذا ستكون رد فعلك، أو بالأحرى من أين ستستمد ردة فعلك؟ الجواب من باطن صدرك الذي غالباً لا نعرف عنه أي شيء يذكر. وبالتالي معاملتك مع الله أساسها مجهول وغالباً ما يكون سيء.

فإذن فهم الصدر هو باب الحياة الذي لا باب غيره. وقد دعونا مثل هذه الدعوة فكشف الله لنا عن هيكل النفس وهدانا إلى من لهم نظر عميق في شؤون النفس والحمد لله. وهيكل النفس هو مفتاح الصدر ووسيلة شرحه أو من أهم وسائل شرحه والذي ييسر انكشافه درجة أو بأخرى. ومفتاح آخر هو كتاب الله نفسه. إذ عندما يذكر الأفكار فترى ردة فعلك لها فإن هذا بحد ذاته يكشف لك عما في صدرك، خاصة الآيات الكثيرة التي تشرح الصدر وتحلله وتؤوله.

فإذن فهم النفس، أعماق النفس هو أهم عمل من أعمال الانسان على الإطلاق.

ونكتفي بهذه النظرة في هذا المجلس. ولا قوة إلا بالله.

...-...

١٣
مسألتين وقصتين وتفسيرين.

١- في أحد الأيام حيث كنت ألقي شيء من علم التأويل على الناس، قام أحد الحاضرين وهو من فقهاء الأحزاب وبدأ يرد على كلامي ليس بنقده في حد ذاته ولكن عن طريق إشهار روايات حزبه وتاريخهم في وجهي. وتوالت علي أمثال هذه الردود التي تحتمي وراء أقوال بعض رجال السلف الذين يفضلهم هذا الحزب أو ذاك وتختبئ وراء المذاهب. وحيث إن الله أمرنا أن لا نقاتل إلا من يقاتلنا، وأرشدنا إلى أن ننذر الأعداء بالحرب قبل إعلانها فإني ضربت لهم هذا المثل رداً على ردودهم:

خرج طالوت ليواجه جالوت. وحيث إن طالوت كان رجل سلم وكان يرغب في أقل عدد من الخسائر والقتلى عرض على جالوت أن يتواجها وجهاً لوجه، بلا جنود ولا حرب من وراء قلعة وجدر. ففكر جالوت، وعرف أنه لن يقوى على قتل طالوت حيث إن هذا الأخير مؤيد بقوة الله. فخالف جالوت على نفسه، ورفض العرض، عرض المواجهة المباشرة، وركض واختبأ وراء جدر قرية المحصنة ذات الأسوار العالية. فعندها قال طالوت "اللهم إنك تعلم أني أحب السلم، ولكن هذا الطاغية يخشى المواجهة المباشرة عالماً بأنه سيقتل وسيظهر أمرك. فاغفر لي ما سأفعله الآن" وتقدم طالوت وصاح "يا جالوت وجنوده وعبيده، إذا لم تخرجوا من هذه القرى المحصنة ذات الأسوار التي تحسبونها قوية عالية، فإني سأدمر هذه القرية بمن فيها وسأهدم جدرانكم عليكم. وقد أعذر من أنذر".

العاقل سيفهم ما تعنيه هذه القصة بكل تفصيلاتها. ولكن نحسب أن الأكثرية قد تغفل عن بعض الأفكار الرئيسية فتعالوا نفسر شيء منها. ولعل أهم ما في المثل هو فكرة "المواجهة المباشرة". ونحن نعلم أن من شيم اليهود والجبناء كما قال الله تعالى "لا يقتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر". وسر ذلك أنهم "ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله" وهذا مثل كل من يحتمي بقول فلان أو كتاب فلان لاثبات فكرته أيا كانت، ولو كانت الأكل باليد اليمنى أو اليسرى، ولو كانت إماطة الأذى عن الطريق، فما ظنك بما فوق ذلك !

وإن كل من تذوق شيء من القرءان الكريم الحقيقي فإنه يكره القتال من حيث المبدأ. أي مجادلة الأحزاب وتحليل أفكارهم والاحاطة بها. وسر ذلك أنهم كمن تعود أكل الملوك النقي فإنه يصعب عليه الأكل من المزابل. ولذلك قال "كتب عليكم القتال وهو كره لكم". ولكننا نتحمله عند الضرورة لعلمنا بغلبة نفعه على ضره.

ومن هنا فإنا لا نرغب في مجادلة الأحزاب، خاصة وأنهم يؤمنون بالقرءان من حيث المبدأ، فلماذا نحتاج إلى القتال. نتعالوا نتساءل بسلام وكفى. ولذلك فإني أسعى قدر الامكان أن لا نضطر إلى أن نحارب أفكار الأحزاب مباشرة. ولكن يظهر أنهم أو أكثرهم لن يرضى بذلك. وسيحتمي وراء جدر كما قال الله وصدق الله. فأرجو أن يعلم الكل، اخوان وأعداء، أننا نحبهم كلهم من حيث الجوهر. نحن نعلم حقيقة نفوسكم وأنها من عين النفس المتعالية ولذلك لا يهون علينا مقاتلتكم. فأرجوكم مرة ثانية أن لا تنظروا إلى كل ما نفعل بأنه تذكرة وتقرير للواقع وحب للترقي جميعاً قدر الامكان بأقل الاضرار النفسية والأذى الاجتماعي.

وأذكر كل من يتبع الأحزاب، خاصة العوام الذين لا حظ لهم من فهم أصول الأمور، ويكتفون بقبول كل ما يلقى عليهم: أنتم لا ذنب لكم. ولكن إذا استمريتم فاعلموا أنكم تحت حكم الله القائل "ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا". هؤلاء لا يريدون منفعتكم في شيء. ولا أصلاً يستطيعون أن ينفعوكم،لا روحياً إذ هم مقطوعين من حبل العرش، ولا جسمانياً إذ هم يريدون منكم الأموال والأعمال. وليس عندهم غير الوعود التي لن تعرفوا صدقها إلا بعد فوات الأوان. وبعد أن يموت جسمك وترجع فإنك لن تستطيع أن ترجع إلى هؤلاء الجهلة لتنتقم منهم. أليسوا أذكياء باختراعهم هذه العقائد ! اعلم أنهم ينظرون إليك أنك من بهيمة الأنعام، يسوقونك حيث تشاء لتسمن، ثم يحلبونك يوماً ويتعشون بلحمك ويلبسون جلدك في يوم آخر ! أنت عندهم واحد في القطيع. هم الراعي وأنت من الرعية. وسترى أنهم سيمنعول أن تسمع لكلامنا هذا، وسيقولون لك "لا تسمعوا لهذا القرءآن" إذ يقطون "آذان الأنعام" كما نبئنا الله. اذهب وجرب إن شئت. وانظر كيف سيقال لك أن هذه فتنة وضلالة ولا تسمح لها. وسيزينون لك فكرتهم هذه بشتى الأدلة العقلية والنقلية. وسيعاملونك كطفل صغير لا يجوز له إلا طاعة أبويه. ألا إن إبرهيم لو أطاع أباه لكنتم اليوم تعبدون جعل !. وماذا يريد إبرهيم غير أن تكون أنت من الملوك "وجعلكم ملوكاً وءاتكم ما لم يؤت أحداً من العالمين".

أما جالوت فقد حكم الله عليه بالموت فتلاً. وهو خير الحاكمين.

٢- أما القصة الثانية فهي هذه:

"كان لملك ابنين. وكانا يسكنان عنده في مملكة حتى كبرا. فقالا له "يا أبانا، إنا نريد أن نبني مملكة كاملة بأنفسنا ونحكم فيها". فقال لهما "لقد بنيت لكل واحد منكما مملكة يجواب الأخرى. فاذهبا إليها واحكما فيها وعيشوا بسلام". فخرج الأخوين. وبعد سفرة طويلة وهما في الصحراء، فإذا بقطاع طرق يخطفونهما. وأخذهم القطاع إلى قرية حقيرة يجتمع فيها اللصوص. وجعلا للأخوين كوخ من الزبالة يسكنان فيه. واستعبداهما وجعلوهم يعملون لصالحهم ومنفعتهم الحقيرة. وأجبروهما على تناول المخدرات بأنواعها حتى ذهبت عقولهم. ومارسوا عليهم أنواع

السحر والشعوذات حتى اختلط الواقع عليهم وانقلب الحق إلى باطل والباطل إلى حق. وبعد فترة من حياة الذل هذه قال أحد الأخوين للآخر "لعل أبينا الملك أراد لنا هذه الحياة، ولعل هذه هي المملكة التي وعدنا بها، وحيث إن أبينا ملك عظيم ولن يجرؤ أحد على خطف أبناءه. فإذن هذه الحياة هي إرادة أبي ويجب أن أرضى بها، ولعله أراد أن يعاقبني على سوء فعلي القديم معه. فسأسلم أمري له وأرضى بهذه الحياة". ومن كثر ترديد هذه الفكرة على نفسه، وبعد مرور سنوات طويلة، أصبح هذا الأخ يرى أن هذه هي احقيقة الحقائق ولا مجال لحياة غيرها. أما الأخ الثاني فإنه كان أحسن ظناً بأبيه الملك، ولذلك لم يقبل هذه الفكرة ولا هذه الحياة المذلة. فعقد العزم على الهرب، ولكنه لم يعلم إلى أين سيذهب، حيث إن طول المكوث في هذه المزبلة أنساه الطريق إلى المملكة. واتفق أن الملك أراد أن يرى حال ابنيه في مملكتهما الجديدة، فأرسل هدهده الخارق السرعة والمتكلم بفصاحة إلى المملكة الجديدة. ولما وصل الهدهد لم يجد أحداً هناك. فتعجب وخاف. وظل يطير فوق الأرض ويمر بكل مراحل السفر حتى اطلع على قرية اللصوص التي خطفت ابني الملك. ونزل، وذهب إلى الأخ العاقل الحسن الظن وقال له "ماذا حصل؟ لماذا لا تزال أنت وأخوك هنا في هذه المزبلة؟ ألم ترغبا في الملك؟" فقال له "نعم ولكني نسيت الطريق". فعلّمه الهديد كيف يخرج من هذه القرية الجهنمية. وفر الابن في الليل وقت السحر حيث اللصوص نيام. وسار ليل نهار حتى وصل إلى الأرض المقدسة التي وعده أبوه بها من قبل. وفرح فرحاً شديداً. واستقبله الناس بحفاوة بالغة وتوجوه وعاش ثلاث سنوات في نعيم الملك الجديد. ثم تذكر أخوه المسكين. فقال "هل أتركه أم أرجع وآخذه؟" وفي أحد الليالي ظهر له أبوه الملك في المنام وقال له "إن أردت أن تكون مثلي فارجع وأخرج ابني من سجن أعدائي". فاستيقظ الملك الجديد، وعزم على العودة لاخراج أخيه من الظلمات ليكون ملك مثله. ولما وصل إليه، وكلمه وقال له "إني وجدت وعد أبي حقاً، فتعال معي لتكون أنت أيضاً ملك" ولكن كان السحر شديد التأثير على الأخ فرد عليه "لا، لا يوجد إلا هذه الحياة، وهذه إرادة أبي، وكل ما عدا ذلك كذب" وتجادلا طويلا، فأراد الأخ العاقل أن يفصل الخطاب فقال "يا أخي، تعال معي، فإن وجدت المملكة حقاً فستتحسن حياتك، وإن كانت كذاب فلن تستطيع أصلاً أن تهوي إلى حياة أتعس من الحياة التي أنت فيها الآن، وعند ذلك تستطيع أن ترجع وتحيا في هذه القرية التي اعتدت عليها. فأنت فائز في الحالتين. وإنما أنت أمام إحدى الحسنيين: معرفة أن ما أنت عليه حق، أو معرفة حق كنت غافلاً عنه". ففكر الأخ قليلاً، وأعجبته الفكرة. فخرج مع أخيه. ووصل إلى ما أعطاه إياه أبيه الملك العظيم. وبعد فترة، جاء الملك ليزور ابنيه، ونظر إلى ملكهما فأحبه، وقال "لمثل هذا فليعمل العاملون" ".

حسناً. لا أريد أن أطيل في التأويل. ولكن سأكتفي بالتنبيه على فكرة واحدة وهي فكرة "القناعة الزائفة بالوصول". ليست الصعوبة في اقناع من يقر بأنه غافل. إذ هذا يعترف أنه غافل، والاعتراف بالمرض نصف العلاج كما يقولون. إنما الصعوبة أو قل الاستحالة هي في اقناع الغافل بأنه غافل في حين يرى هو أنه أذكر الذاكرين. فعندما يقتنع المريض بأن مرضه عين

الصحة فهل من أمل في علاجه. وهذه هي أكبر عقبة أمام كل من يسمون أنفسهم مسلمين. سواء مسلم يقوم بالفرائض أم مسلم لا يعرف من إسلامه إلا عدم أكل الخنزير، أو مسلم بالمولد والاسم فقط. هم يحسبون أنهم يعرفون. ولذلك لا نملك أن نكلمهم في شيء. كمثل هذا الأخ الأبله الذي عاش في مزبلة واعتقد أنها عين المملكة. هو أصبح يرى أنها المزبلة هي هي المملكة. فإذا جاءه أخوه وقال له "يا أخي تعال نذهب إلى المملكة" فإنه على الأغلب سيضحك في وجه أخيه ويسخر منه ويقول له "يا أخي، أمجنون أنت، غبي أنت، أنا الآن أحيى تحت ظل إرادة أبي وأنا في المملكة، فلماذا تدعوني إلى شيء أنا فيه !"

وهكذا هؤلاء يحسبون أنفسهم في ظل كتاب الله. وظاهر الفرق بين المثل الجسماني والواقع العقلي. إذ في المثل الذي ضربناه. يستطيع الأخ أن يجر أخوه بالسلاسل ليثبت له أن المملكة الحقيقية هي غير القرية التعيسة التي يحيا فيها. ولكن في البعد القلبي لا مجال لمثل هذا الجبر على الاطلاق. إذ "لا إكراه في الدين". ولا يمكن لأحد أن يجبر أحد على الفهم والاستنارة العلمية الباطنية. استحالة مطلقة. ولذلك لن يملك الداعي إلا الكلام وضرب الأمثال والضحك والقوة النفسية. وعلى الأغلب لن يعمل أحد على الخروج من القرية التعيسة إلا بعد أن يعاني منها بشدة ويظن أنه بالامكان أن يخرج منها إلى ما هو أحسن منها. وإلا فليعتاد على التعاسة والملل الذي هو فيه الآن ولا يلومن إلا نفسه في الغالب، أي ما لم يكن سبب التعاسة أمر خارج عن طاقته.

فمثلاً، إذا قلنا للناس "أقيموا الصلوة" فإنهم يردون "مجنون أنت ! نحن نقيم الصلاة خمس مرات في اليوم" أو "إني على جنابة ولا أريد أن زصلي" أو ما شابه من اعتذارات وردود صادرة عن إيمان أو الحاد كلي أو جزئي. ولكن الواقع أن مدلول كلمة "الصلوة" عندنا هو غير مدلولها عندهم تماماً. ولذلك الذي يهز جسمه ويتمتم خمس مرات بحسب نفسه أنه قد أقام الصلاة والحمد لله، ويحسب أنه قد أقام عمود الدين، والباقي على الله. وهكذا في كل أفكار الأحزاب الأخرى. الصورة واحدة ولكن المدلول يختلف. كما إذا تكلمنا عن الآخرة، نحن نفهم أن الآخرة هي الآن والباطن وغير ذلك، ولكن هم يفهمون أن الآخرة هي حياة بعد موت الجسم، فصور الكلمات مشتركة ولكن معانيها بيننا وبينهم متباينة. ولا قوة إلا بالله. وواقع حياتنا غير واقع حياتهم. وأفكار الأحزاب في كل المجالات النفسية والاجتماعية قد ساءت لأكثر من ألف سنة ولا ثمر طيب في أكثر الحالات إلا قليلاً. فعلى الناس أن تقتل هذه الشجرة أو تزرع شجرة جديدة عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده. فانظر أيهما تحب أن تكون، أمير الزبالة أم أمير المملكة، وواقع نفسك يخبرك أحسن من كل كلام إذ الانسان على نفسه بصيرة. والحمد لله رب العالمين.

...-...

١٤
عن العرفان

”فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن“ هذا هو جوهر العرفان في كل زمان ومكان.

العرفان هو سكون الجسم، وزوال الأفكار، والشعور بالظلام التام، واجتماع الليل والنهار. غرق في بحر الأزل واتصال حي بمعدن الأنوار. وعندها تحل الألغاز وتنكشف الأسرار. غيب الغيوب في عين الظهور. فناء كل شيء وصمود الواحد القهار. فلا عابد ولا معبود، ولا عاشق ولا معشوق، ولا عاقل ولا معقول. وجود بسيط، وفيض حميد. من يقوى على الشهود والقيام في مقام انمحاق الدرجات وثبوت وحدة الوجود.

ثم غيبة السكر تحل على العارف في الليل والنهار إلى ما شاء الله، وببصر حديد، وترى العارفين سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فلا يعرف إلا حفظ الصلوات وملازمة الأوراد والغرق في غيب الوجود، فمنهم من يراه على هوى باطل وآخر يراه على الحق المحمود. وأما العارف ففي شوق إلى أن يفهم بعقله ما انكشف لسره. وهو لا يشعر حقاً بما انكشف لسره. ولكن يشعر وكأنه إله العوالم، أو أن إله العوالم طوع أمره، وما ذلك إلا من دلال العشق وليس من أمره. فتتفجر طاقة هائلة للبحث في هيكل نفسه. فيلتهم الكتب التهاما، ويجادل في كل شيء جدالاً، حتى يحسبه الجاهل أنه من الذين كذبوا بآيات الله كذابا. وبعد ذلك يختزن في عقله من كل شيء، ويمنعه من تكذيب أي شيء علمه الباطني بأن الحق عين كل شيء، فيصبر على سكن المتناقضات المتضاربات في قلبه كمن يصبر على ضيافة الأحزاب كلهم في يوم واحد في بيته. فيبدأ قلبه بالانشغال بأمور العوالم وترتيبها وفهم جوهرها وتلاحمها، وبذلك يبدأ ينحجب عن النفس المتعالية في مقام عين تجليها. من الوحدة إلى الكثرة ينتقل بعد أن سافر من الكثرة إلى الوحدة من قبل. وإنا لله وإنا إليه راجعون. فتسعر فيه الشهوة للنساء خاصة، وجمال تجلي الله فيه يجذب إليه نساء العامة والخاصة. وبالعشق يستولي على القلوب، وبتاج العز يصبح أحسن محبوب. فتصعد به الدنيا وينسى مقامه الأول في عين المعشوق، وغيرة العشق تسبب محو عزه من الوجود، فتسقط شجر الدنيا كما وعد الذي يصدق كل كلامه، عاجلاً أم آجلاً لأمر أمره.

ثم يبدأ الاشراق من أول وجديد، ويمنّ العليّ بكشف الغطاء وإرجاع البصر حديد. كمثل زوجة تركت زوجها بماله واسمه، فتذكرت بعد حين عز النوم بجانبه. أو كمثل زوج تخلّى عن زوجته ظناً بأنه سيجد أحسن منها لحياته، فلم يجد إلا عجوزاً في الغابرين، وكمثل من قيل لهن ادخلا النار مع الداخلين.

فيرجع العارف من الكثرة إلى الوحدة، وقلبه فياض بالولاء وإخلاص المحبة.

أي حياة هذه بدون فناء العاشق في معشوقته. أي حياة هذه بدون شرب الخمر من نهر لسانها، أو لعق العسل المصفّى من صافي جسدها، أو أن ترضع القدس من لبن ثديها، أو تروي فمك من ماء فمها.

أي حياة هذه بدون أن تجود العين بالبكاء انتظاراً وشوقاً إلى تجلي المعشوق، أو استعدادا واستقبالاً للفناء المحبوب، أو سعياً إليه بابتكار الدروب، أو التزين له بسلامة القلوب.

ويل لمن لا يحترق بنار العشق فإنه سيكتوي بنار الذل. ويل لمن يحيا لغير العشق فإنه سيحيا بحميم المهل. وجوه مشوية، وعقول شيطانية، واجتماعات تافهة فارغة، ونفوس محشية بالأمراض الروحية. هل يستوي هؤلاء مع الذين أدخلهم الجنة عرفها لهم، أم يستوون مع الذين فوق عرض ربهم مقعدهم، أترى الزاني والعفيف كلاهما محجوبون، أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون.

العرفان دين كل الأديان، وكل العارفين يرون نفس عين الرحمن، ولكن هذا يعبر بصورة وذاك يصبر بصورة أخرى بما يناسب درجة الأفهام ومراعاة حال الزمان والمكان. وطريق العرفان طريق واحد في جوهره، أغلق بابك واقعد بسكون ولا تتحرك ولا تفكر ولا تتذكر واجعل شريط الأفكار يمر بسلام، لا تحاربه ولا تعانده، دعه يمر وكأنه منفصل عنك حتى يزول وحده. باختصار سكن جسمك وعقلك وإذا أنت في عين الواحد القهار. إن الجوهر ليس هنا ولا هناك، هو هو هنا وهناك، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، فإن لم تعرفه هنا فلن تعرفه هناك ولو كنت أعبد العابدين.

كل الثمرات نتيجة إحياء الصلة بينك وبين جوهرك، فلماذا أحدثك عن ثمرات لن تعقلها إلا إذا اتحدت مع معشوقك. اسبح في بحر النور، وعندها سيتولى هو أمر كشف أسرار الأمور. كل ما عدا العرفان أضغاف أحلام، فالواقع فيك فلماذا تستبدله بالأوهام. من يريد نعيم لا يزول، من يريد تجارة لا تبور، من يريد عز بلا شقاء ولا كسور، فعليه بالعرفان فإنه في الواقع جوهر كل الأمور.

تسألني ما هوالعرفان، أقول اصمت واعرف بنفسك. واقتدي بساقي الخمر وارجع إلى ربك. فإن صاحب خبز العلم صُلب حقيراً، وأما ساقي خمرة العشق أخرج يوسف جوهرك وجعله عزيزاً. ولله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون يتجلي الله.

...-...

١٥

عن "وعجلت إليك رب لترضى"

١- أعمق الناس في هذه الحياة هم الذين تحيا قلوبهم بفكرة "الدرجات". فالكلمة الواحدة لها درجات في العوالم. فبحسب أحد العوالم تكون فكرة غبية ولكن حسب عالم آخر هي عين الحكمة الإلهية. وكذلك الأعمال، فيوجد عمل صالح بالنسبة لشخص ومرفوض بالنسبة لشخص آخر. وبناء على ذلك فلا يوجد أي شيء إلا وهو حق بحسب أحد الدرجات. ولا ينتقص من قيمته كونه باطلاً أو مضراً بحسب عالم آخر. وهذا من أسرار قول الحق "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم". ونسمي الذين يحيون وهم على علم عميق وتجربة بهذه الفكرة، أي فكرة الدرجات، هؤلاء نسميهم عارفين. أو عالمين أو نبيين. فلنختار كلمة عارفين والكل صحيح.

فالعارف لا يمكن أن يرفض أي شيء بالكلية. بل يقبل كل شيء ولكن ينزل كل فكرة منزلتها. والفرق بين العارف والجاهل هو أن الجاهل يخلط بين العوالم. ففكرة محلها في عالم الملكوت يجعلها في عالم الآفاق. وفكرة في عالم الأنفس يجعلها في عالم الملكوت. وغير ذلك من الخلط.

فمثلاً، كنا نضرب مثل على ضرورة تجريد الفكرة من قائلها ونقول: لو قال لك جبريل أن ٥+٥=٧٢ هل تقبل منه ذلك؟ وظاهر أن قول هذا مرفوض ولا يمكن إلا لغبي أن يكابر في ذلك. ولكن بحسب فكرة الدرجات فإن قول جبريل هذا حق ولكن ليس من حيث كونه يريد أن يعلمك رياضيات. ولكن من حيث أنه يريد أن يذكرك بعالم العشق مثلاً. حيث لا عقل في عالم العشق المطلق. وكون جبريل لا يمكن أن يخطىء في عملية حسابية بسيطة مثل ذلك يكون كقرينة قوية تدلنا أنه يريد بقوله هذا أمر أبعد من عالم المنطق الآفاقي. وعلى هذا قس كل شيء. ومن هنا لا يمكن أن ترى عارفاً حقيقياً إلا وتراه يسمع لكل أحد، ويقرأ لكل أحد، وهذا حكم مطلق. فالعارف لا يخاف من شيء. "إني لا يخاف لدي المرسلون".

٢- آية الوصول إلى اله هو أن تبكي من الفرحة لكونك تقرأ القرءان وتفهمه. وقبل ذلك أنت إما مثل اليهود والنصارى أو في أحسن الأحوال مؤمن يسعى إلى الله وما يزال في السفر. وهذا البكاء ليس تكلفاً، ولا هو من الفرائض بحيث تجعل لنفسك موعداً كل يوم لتجلس أمام القرءان وتبكي. ولكن هو حالة قلبية إشراقية لا يعرفها إلا من يحيا في عقل القرءان.

يوجد في القرءان عمق عميق جداً. عمق تنقلب فيه كل الموازين. ويصبح العالي هو السافل، والسافل هو العالي. ويصبح المرسلون مشركين، والمشركون مرسلين. ومن أراد جوهر الحياة وسر الأسرار فليعمل على كشف هذا العمق الذي يتحول فيه الأنبياء إلى أغبياء، والأغبياء إلى أنبياء. وإني أعلم ما يفكر فيه بعض من يسمع هذا الكلام ويتأمل فيه. ولكن اعلم أن العارف لا يكون

عارفاً إلا بوصوله وغوصه إلى هذا العمق الأكبر. وإني لأشعر بأن هذا هو السر الذي يولد الفرحة الكبرى بالقرءان والله والحياة عامة. هذا السر هو سبب العشق الدائم والاشراقات المتوالية. ولا يمس هذا السر إلا المطهرون. أهل بيت الله. أليس من الأحسن لو يسعى كل عربي إلى هذا العمق. فكر في الأمر.

أما لو سألت ما هو هذا العبد فالإجابة بسيطة جداً جداً. وهذه مفارقة عجيبة فإن أعظم الأمور على الإطلاق هو أبسطها على الإطلاق. والجواب المفصل هو ثلاث كلمات: وجود الوجود والعشق.

٣- عندما استعجل موسى وذهب لربه وترك قومه. وقال له الله "وما أعجلك عن قومك يا موسى" قال "هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى". فإن الله لم يأخذه بالأحضان ويرحب به ولكنه أخرجه وأمره بالرجوع إلى قومه عباد العجل. ألم يكن من المفترض أن يرحب الله تعالى بهذا العبد الصالح المسارع بالخيرات والزاهد في العظمة الاجتماعية وقيادة الناس. ولكن العجيب هو هذا الطرد. لماذا؟ للجواب درجات أكتفي بذكر العمق الأكبر الذي كنا نتحدث عنه. فتأمل.

ارتكب موسى أربع معاصي بحسب العشق. أولاً قوله "وعجلت" لماذا تستعجل، ثم إلى أن تذهب أنت أو إلى أين سيذهب الله إذا لم تستعجل، هل الله هنا وليس هناك، هل الله اليوم وليس غداً.

ثانياً قوله "إليك" وهل يوجد شيء غيره حتى يحدد أنه يريده هو بالذات. من هذا الذي يوجد غير الله.

ثالثاً قوله "رب" إن كان هو رب فأنت عبد، فأنت غيره، وهذا الانفصال المزعوم من لقه. إن كان لا يوجد غيره فمن رب ومن بعد.

رابعاً قوله "لترضى" فهل إذا لم تأتي إلي يا موسى سأكون غير راضٍ، فهل أنت تؤثر فيّ وتغيّر في. هل أنا محدود حتى أتغير. ثم على فرض زهمك بأني أشعر وأتغير، فمن أعطاك القوة حتى تؤثر أنت في، هل أنا فقير إليك لتعطيني أم أنت الفقير إلي لأعطيك لعلك ترضى.

ولذلك أمره أن يرجع إلى أفكاره الوثنية لينسفها نسفاً ويذرها في يم العشق ولا يرجع إلى هذه الأوثان الشركية مرة أخرى. ولا قوة إلا بالله.

...-...

١٦
في "ويؤيدهم بروح منه"

١- هل يوجد روح من غيره حتى يخصص هنا أن التأييد بروح "منه" ؟ إذا نظرنا في كل القرءان لا نجد إلا روح مفردة. فلا يوجد أي ذكر لروحين أو أرواح، واستعمال العامة لهذه الكلمات إنما هو استعمال غير دقيق. الروح واحد لا ثاني له. وهو المعبر عن النفس المتعالية، أي ذات الحق جل جلاله. والروح هو المتعالي عن عالم القلب والجسم، أي عن السماء والأرض. فهو رب العرش العظيم. وله ظهورات وتجليات في العوالم.

فالروح بالأصل هو عين الله أي نفسه. ثم رسوله في الملأ الأعلى أي الروح الأمين. ثم كتابه أي روح أمره. ثم وحيه ونصره أي روح القدس. ثم المسيح أي الانسان الكامل. فالروح هو القوة التي تحمي وتكمّل وتسدد.

وبناء على ذلك، فما الحكمة من تخصيص "منه"؟ السر هو أن الآية تتكلم عن المسيح. إذ قال عنه "وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه".

تقول الآية عن المؤمنين "أولئك كتب في قلوبهم الايمان ويؤيدهم بروح منه". فهذا يعني أنه لن يظهر المسيح إلا بعد أن ينكتب القرءان في قلوب الناس. فهو من ثمار دراسة القرءآن بعمق. فليس المسيح هو الذي سيخلق المؤمنين ولكن المؤمنين هم الذين سيخلقوا المسيح. فإذا نظرنا في مثل الزراع، سنرى الأمر بوضوح تام. إذ من الذي يزرع الشجرة، الزراع أم الثمرة؟ الزراع هم السبب. ولكن الثمرة هي مجرد نتيجة من نتائج عملهم. الثمرة لا تزرع نفسها بنفسها. الزارع يخلق الثمرة، ثم الثمرة تحيي وتقوي الزارع. عطاء وأخذ. عمل وترقي.

وقوله "كتب في قلوبهم" يفسر الاضطراب القلبي عند الدارس للقرءان. إذ قلم الله إذا تجلّى في القلب فإن القلب لا يعرف السكون. زلزلة شديدة، وهيبة رهيبة من ظهور أمر العرش لقلب العابد. ولاحظ أنه لم يقل "كتب في قلوبهم"ولكن قال "في قلوبهم" أي في أبعد الأعماق الباطنية. فالعارف جذوره كلها إلهية. ولذلك تراه بسيطاً ضاحكاً. الاصلاح لا يكون إلا من جذور الجذور. وما عدا ذلك فهو عرض زائل يوشك أن تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق.

٢- لو أراد الحق أن يحصر الموضوع في المسيح لقال "ويؤيديهم بالمسيح".ولكن حيث أنه لم يفعل علمنا أن المقصود أوسع من ذلك. وحتى عيسى نفسه لم يصبح المسيح إلا بروح القدس. "وأيدتك بروح القدس". فالقلب الذي يرفض أن يتعلم إلا من الله هذا هو مريم ،والعلم الذي سيتملئ به هو الرسول النافخ، والنتيجة أن يصبح الانسان في مقام عيسى. ولكن يوجد درجة، الدرجة التي

سماها الله "زيادة" في قوله "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة". أي للذين أحسنوا في دراسة كتابي "الحسنى" وهي العلم وفهم الأسماء الحسنى. ولكن إلى هنا يتوقف الاجتهاد والعمل والأجر. ثم ما بعد ذلك هو من فيض الرحمن المقدس وهو قوله "وزيادة" أي المسيح. فلا يكفي أن تكون عيسى بن مريم، ولكن الكمال أن تصبح المسيح عيسى بن مريم. كيف؟ هو قوله "وأيدتك بروح القدس".

لم يقل "أيدتك بالروح القدس" أو "الروح المقدس". أما الأولى فلا معنى لها. وأما الثانية فلا يوجد روح غير مقدس إذ الروح واحد كما عرفنا. ولكن قال "بروح القدس". فأولاً يوجد "القدس". ولهذا القدس "روح". هذا الروح هو الذي يؤيد الله به. ومن هنا نفهم التخصيص، إذ للقدس جسم، وللقدس قلب، وللقدس روح. الروح هو الأعلى. فعندما يأتي التأييد منه، فهذا يعني أنه سيقدس كل درجات وجود الانسان من الأعلى إلى الأنزل. فكل قلب يحوي الروح فهو قلب القدس، وكل جسم يعمل بأمر الروح فهو جسم القدس. أينما تواحد حوّل المكان إلى مكانه.فأينما يضع الروح قدمه فهذا محل روحاني. وبذلك يكون لا حدود للروحانية.

فمن هو "القدس"؟ هو الله. يقول "بروح القدس" ويقول "من روح الله". فالقدس مقام الله. ولن يصل أحد ويبقى في مقام القدس إلا إذا خلع نعليه، نعل الجسم ونعل القلب، أي نعلم عالم الأجسام والقيم الاجتماعية، ونعل عالم الأفكار والقيم الشخصية. فعند ذلك التفرغ يمكن للعبد أن يبقى في حضرة الملك دائماً. فلاحظ أن موسى وصل ووقف في الواد المقدس ولكن استمراره كان هو بخلع نعليه. وكذلك كل عربي يمكن أن يفتح القرءان ولكن "لا يمسه إلا المطهرون". وهذا ليس حكم فقهي ولكن خبر واقعي.

ومن هنا قال "وإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب". أي إذا فرغ قلبك. لأن الكأس الممتلئ كيف تصب في ماء جديد. وكذلك الذي حشاه المجتمع بالأفكار، وهو يحشي نفسه كل بتذكر الماضي ويرضخ له، وكل نوع من الأفكار، هذا كيف ينتفع بالقرءان؟ لا ينتفع. كالماء الذي ينزل على حضرة. الكبت وتعمد التناسي ليس هو التفرغ المقصود، بل هذا من أخطر الأمراض. ولكن المقصود هو مواجهة كل الأفكار النفسية بقوة وحلم وسلام. ونقد كل الأفكار الاجتماعية برحمة وحب. الهدوء ثم الهدوء. الابتسام ثم الابتسام. الضحك ثم الضحك. القوة ثم القوة.

وبما أن القرءان نزل بروح القدس. فهذا يعني أن القرءان يدعو إلى مقام القدس. مقام "هو الأول والآخر والظاهر والباطن". ومن ثم ننزل بالروح من أمره. وعلى الله فليتوكل المتوكلون.

...-...

١٧
عن السماع.

١- يقول الكتاب "إنما يستجيب الذين يسمعون. والموتى يبعثهم الله. ثم إليه يرجعون".

الله قد حكم، وحكمه صدق، بأن الذي يسمع سيستجيب. وبالتالي المعرض لم يسمع. فلو كان المقصود بالسماع هو سماع أذن الجسم لوجب أن يستجيب كل من يسمع تلاوة القرءان. وهذا غير واقع مطلقاً. بل إن من أشد الناس إعراضاً عن القرءان هم الذين يسمعونه ويتلونه ليل نهار من الأحزاب.

ونلاحظ أن الكتاب لم يحدد بماذا يسمعون في قوله "إنما يستجيب الذين يسمعون". ولم يحدد ويخصص هل الذين يسمعون بأذن جسمهم أم بأذن غير هذه. ولكن بما أن الاحتمال الأول غير واقع ومخالف لآيات أخر. فإذن المقصود هو السماع بأذن القلب.

فلماذا لم يخصص ويقول "إنما يستجيب الذين يسمعون بقلوبهم"؟ هذا لأنه لا يعترف أصلاً بالسماع بأذن الجسم. فالذي يسمع كلام الله بأذن جسمه لا يساوي عند الله شيء وهو وكأنه لم يعمل شيء. ولكن إذا أدى ذلك إلى السماع بأذن القلب فالفضل والأجر لسماع القلب. فعالم الأجسام معدوم بالنسبة لله في هذا الشأن.

ولذلك لما ذم الكتاب الغافلين لم يقل "لاهية آذانهم" أو "آذان أجسامهم". وإنما قال "لاهية قلوبهم". وهذه الفكرة تؤيد الفكرة التي تقول "لا تحرك به لسانك لتعجل به". وهي ما قررناه في منهج العلماء في دراسة القرءان العظيم، أي أن تكون الدراسة باطنية عقلية ولا حاجة للتلاوة بصوت مرتفع. فالقرءان روح نزل على قلب، فيجب أن ندرسه بعمق روحاني وفي عمق القلب.

٢- يقول الكتاب "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون" ونلاحظ أن السماع يأتي دائماً قبل العقل، أو قل في أكثر الأحيان. ولما أراد أن يحدد الغاية من القرءان قال "إنما أنزلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون" ولم يقل "لعلكم تسمعون". فالسماع مقدمة، أو مثل الباب.

ولكن يوجد آية تقول "لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" وكلمة "أو" تقتضي نوع من المساواة بين الخيار الذي قبلها والذي بعدها. فهو لم يقل "لو كنا نسمع ونعقل". فكأن الانسان مخير في السماع أو العقل. أو كأنهم درجتين، أو نوعين من العلم. ويوجد في القرءان ما يؤكد على وجود نوعين من العلم، كما في قصة موسى والعالم في سورة الكهف. فموسى عنده علم الأخبار، والعالم عنده علم العقل والاعتبار. وظاهر أن طريق معرفة الخبر هو السماع، وطريق معرفة العبرة هو العقل. ومن هذه القصة نعرف أن علم العقل أعلى من علم الخبر. إذ صاحب علم

الأخبار ذهب ليتعلم من صاحب علم الاعتبار. ولذلك جعل الله الغاية من القرءان الذي هو خبر بحد ذاته، جعلها العقل. "لعلكم تعقلون".

فهل يقر الكتاب عمل الذين يأخذون الخبر ولا يعقلونه؟ الجواب قطعاً لا. لأن الله لم يعترف بسماع دون عقل. وبذلك يكون العقل أعلى من السماع، أي الذي يعقل الأمر خير من الذي يسلم كالأعمى للخبر. ولذلك قال "أدعو إلى الله على بصيرة".

ومن هنا نفهم لماذا سمى القرءان العالم بقوله "مجمع البحرين". أي بحر السماع وبحر العقل. أما موسى فكان "وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا" فاتباع الأخبار العميان دائماً متعصبين ومستعجلين ولذلك لا يحتمل العقلاء صحبتهم "هذا فراق بيني وبينك". والدرس من هنا هو أن نكون في صف العالم بالتأويل، وليس في صف غنم الخبر.

ومن البديهي إذن أن العقل إذا عارض الخبر فالعقل أعلى. فالخبر مفتقر إلى عقل، وأما العقل فلا يحتاج إلى خبر. ولذلك قال "قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه". فالعقل لا يعرف أي قيد على الإطلاق. وهل المستضعف غير الذي يحجر على عقله ويسلط عليه سيف الترهيب والخوف.

عقل الشعراء كلحم الخنزير، وعقل العلماء كلحم الطير.

٣- "يسمعون" ماذا؟ السماع يقتضي وجود كلام بصورة حرف أو بصورة أصوات. والسماع يقتضي سامع ومتكلم. ونوع من الانفصال بين المتكلم والسامع. ولا يلزم أن يكون المتكلم ذات غير الذات السامعة. إذ قد يتكلم الانسان في نفسه، فيكون جزء منه متكلم وجزء منه سامع.

وباعتبار أنه لا يوجد في باطن الانسان إلا نفسه. ويعلمنا وجود العقل الباطني اللاشعوري، والعقل الظاهري الشعوري. فيكون المعنى هو السماع لما يدور في العقل اللاشعوري. حيث إنه هو النبع الذي يتدفق كل شيء منه إلى العقل الواعي. وبذلك يكون السامع والعاقل هو الجزء الواعي من النفس. والمسموع هو الأفكار اللاشعورية التي تفيض على الوعي. وعقلها هو بالشعور بها وفهمها وتتبع سلسلتها والتعمق في محتوياتها. إذ اللاشعور هو أصل الانسان. وهو ومنه الدافع الحقيقي لأفعاله.

وعلى ذلك، يكون وجود علاقة بين العقل اللاشعوري والله. وعلاقة بين محتويات اللاشعور وكلم الله. وحيث إن الله واحد لكل الناس من حيث الجوهر، فبهذا يكون اللاشعور أيضاً واحد لكل الناس من حيث الجوهر. وكمثال قد نقول أن اللاشعور هو الكمبيوتر المركزي، والعقل الواعي لكل إنسان هو كمبيوتر خاص، موصول بالكمبيوتر المركزي، أي شيء يشبه شبكة الانترنت. فكل العقول

الواعية تصب في اللاشعور الواحد، وكذلك كل العقول الواعية باستعداد معين يمكن أن تستمد من اللاشعور الشامل.

وهذا يقتضي بأن يكون عند كل انسان القابلية ليعرف كل شيء من الجوهر المركزي، وللتأكد من قوة أو ضعف هذه الفكرة النظرية يجب أن نستنبط بدقة كل الأمور التي إذا توفر الاستعداد بها في العقل الواعي يمكن أن يستقبل من العقل الجوهري الكلي.

وعلى فرض صحة هذه النظرية، هل يحوي العقل الجوهري كل الأفكار التي وجدت حتى في السابق في عقول الناس؟ اذا اعتبرنا أن العقل اللاشعوري هو الله، والله يعلم كل شيء وهو مصدر كل شيء، فهذا يقتضي أن كل الأفكار موجودة، كل فكرة ولو حتى خطرت لمجرد ثانية في رأس انسان في أي زمان ومكان كلها موجودة في العقل الجوهري.

فيوجد لاشعور جزئي، وهو يكون بحسب حال كل فرد وتاريخه الشخصي، ويوجد لاشعور كلي وهو مجموع كل العقول اللاشعورية للناس. فكل الناس متصلين جوهرياً. فأعلم الناس بباطنه هو أعلم الناس ببواطن الناس. والعلم بالباطن اللاشعوري هو أن يتصل عقلك الواعي بالعقل اللاوعي. وبذلك تتوسع نفسك في العقل اللاواعي. ولذلك العالم بباطنه يشعر الناس حوله بشيء من الانجذاب أو الحرارة أو ما يشبه الشعور بالاجلال، حيث أنه متوسع في بواطنهم عن طريق توسعه في العقل اللاواعي الجوهري الكلي.

٤- فإذن نخلص من هذا إلى أن السماع هو فهم القرءان وفهم العقل اللاشعوري.

...-...

١٨
ما هو "بيت الله" ؟

١- كلامنا هنا مع أهل الأديان عامة، ومع الأحزاب خاصة الذين يعظمون أماكن معينة على الأرض ويفضلونها على باقي الأماكن مثل ما يسمى بالحرم المكي وغيره.

كثيراً ما يتحدث الناس، علماء وعوام، عن أمور بدون أن يفهموا ما يقولون. هكذا يتكلمون وحسبهم الله. وبعد ذلك يبدأ كلامهم هذا يتجذر في نفوسهم لدرجة يصعب عليهم تصور الحياة بدون هذه الاعقادات، بالرغم من أن عقولهم بعد النظر ترفض هذه العقائد. ثم يتولد السرطان النفسي الخطير والذي هو أن يخاف الانسان من عقله. فعقله يقول له أمور ولكن عقائده تقول له أمور أخرى وتهدده بجهنم حالياً ولاحقاً إذا حال شيء بينه وبين هذه العقائد أو قل الأصنام.

يتحدث الناس عن "بيت الله" ويقولون أنه هذا المبنى الحجري الجسماني الموجود في صحراء شبه الجزيرة العربية. ويوجد أناس آخرون يقولون أن "بيت إله دينهم" هو ليس هذا المكعب الحجري ولكن موضع آخر في فلسطين أو الهند أو إيران أو أي مكان آخر. فتعالوا ننظر في هذه الفكرة التي اعتاد الناس على تصديقها وجعلها تحت بند المسلمات والبديهيات، الأسوأ من ذلك هو جعلها تحت باب "المعلوم من الدين بالضرورة".

٢- عندما نقول "هذا بيت فلان" يوجد أربعة احتمالات، خاصة إذا نسبنا البيت إلى "الله". نعم لكي نفهم هذا سنضطر أولاً أن نتفق على معنى اسم "الله" ثم يصح أن نغوص في الفكرة. وبما أنني هنا أتحدث مع "مسلمين" يؤمنون بالقرءآن كحقيقة مطلقة، فظاهر أن جمهور القراء والسامعين متفقين معي على معنى اسم الله وهو الذات العليا المطلقة التي لا يحدها شيء. مع اختلاف بسيط في اختيار الكلمات، ولكن لا بأس في الاختلاف في المباني إذا اتفقنا على المقاصد والمعاني.

الاحتمال الأول هو أن "بيت الله" هو المكان الذي يسكن فيه الله. وبمفهوم المخالفة تكون باقي البيوت ليست بيوت الله لأن الله لا يسكن فيها. ولا أعرف من يتجرأ أنه يزعم أن الله محدود بمكان معين، خاصة إذا زعم أنه مكان في الأرض وبين أربعة جدران من الحجر. فعندما نقول "هذا بيت زيد" هذا يعني أنني إذا ذهبت إلى بيت عاجلاً أم آجلاً حسب هذا المفهوم سأجد زيد في البيت لأنه ساكن فيه. فإذا ذهبت ولم أجده فكلامك كذبك عندما وصفت البيت بأنه البيت الذي يسكن فيه زيد. وهذا الاحتمال مرفوض بالنسبة لله قطعاً إذ "هو الأول والآخر والظاهر والباطن".

الاحتمال الثاني هو أن "بيت الله" هو البيت الذي يملكه الله. فرذا قلت "هذا بيت زيد" فمن معاني ذلك أن هذا بيت مملوك لزيد ولا يكون من اللازم بالضرورة أن يكون زيد ساكن فيه. وهذا المفهوم مرفوض لأن الله هو مالك الملك كله، له ما في السموات والأرض.

الثالث هو أن هذا البيت هو المكان الذي اختاره الله ليعبده الناس فيه. وهذا باطل لأن الله يعبد في كل مكان، والأرض كلها مسجد اله. ثم من السخافة أن يخلق الله مليارات من الناس ثم يختار مكان لا يسكن لأكثر من بضعة ملايين في أكبر الحالات. وهذا مع كل التوسعة.

الرابع هو أن الله متواجد في هذا المكان أكثر من تواجده في باقي الأماكن. وهذا أيضاً من الكفر لأن الله واحد أحد، هو هنا كما هو هناك، فهو ليس من أجزاء جل وعلا.

ويوجد احتمال خاص وأخير وهو أن الله اختار هذا المكان ليكون قبلة للناس يتوجهون إليها في صلاتهم ودعائهم. وهذا هو الاحتمال الذي يأخذ به الناس في واقع أمرهم. ولذلك أريد أن أفصل فيه بتوسع. بالرغم من أن الرد على هذه الفكرة من أبسط ما يكون خاصة إذا كنا من المسلمين.

أولاً، الصلاة توجه إلى الله. وليست توجه إلى حجر. "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله" والادعاء بأن الحجر هو القبلة، ولو ظاهرياً، هو اعتقاد وثني بحت. وإذا ذهبت وسألت الذين يصنعون الأوثان الحجرية ويتوجهون لها ويرون أنها "قبلة" لصلاتهم ودعاءهم سترى أنهم يقولون مثل قول هؤلاء تماماً وحرفياً. فهم يقرون بأن هذه مجرد حجارة، ولكن بما أن الله في كل مكان وأعلى من كل مكان، وحيث أننا نحتاج إلى قبلة ظاهرية في صلاتنا، فإذن تعالوا لنعمل حجارة أو غير ذلك ونجعلها مجرد قبلة ظاهرية. هذا هو اعتقاد عباد الأوثان الذين يذمهم هؤلاء الذين يفعلون في الواقع مثل فعلهم.

ولكي أزيد الأمر وضوحاً في أن هؤلاء الأحزاب يرغبون أن يستعبدوك لحجر، اذهب وقل لأحد علماءهم "إني لا أريد أن أقوم بجسمي إلى هذا المكعب، ولكن أريد أن أصلي لأي جهة أخرى" وانظر هل سيقول لك أن هذه "القبلة" لمجرد الوجه الجسماني أم أنه سيقول أن "صلاتك باطلة" بزعم أن "الله أمرنا بها". أقول: كما أن الله لا يأمر بالفحشاء فالله لا يأمر بالباطل.

إذا كانت الحقيقة أن "أينما تولوا فثم وجه الله" فهل يمكن أن يخالف الأمر هذه الحقيقة ويجبرك على التوجه إلى شيء جسماني معين.

وعلى فرض أننا بحاجة إلى "قبلة ظاهرية" فإن جعل كتاب الله قبلتنا خير من جعل الحجر هو القبلة.

وماذا يفعل الذين لا يرون المكعب ككل الناس الغير متواجدين حوله؟ يقولون لك "يتوجه إليه بقلبه"! هل رأيت الوثنية ! يريدونك أن تتوجه إليه بقلبك. أو يقولون "اجتهد في معرفة جهته فإن لم تستطيع فصلّ لأي جهة شئت". أقول: وأي فائدة في ذلك. طالما أن الدعاء لله، والقلب هو محل نظر الله، فلا حاجة لكل هذا الاجتهاد المشؤوم. وكما قلت: فأن تضع كتاب الله العظيم أمامك خير من أن "تجتهد" لتتوجه إلى حجر. هذا إن كان ولابد من أن تضع شيء أمامك أصلاً. والأحسن أن لا تعود نفسك على هذه القيود المرضية.

ثانياً، الصلاة هي دراسة الكتاب في أصلها. وذلك لا نحتاج إلا إلى الكتاب وعقولنا. وأما هذه الحركات التي يسميها الأحزاب صلاة، فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

٣- فإذن كل الاحتمالات الخمسة احتمالات باطلة ديناً وعقلاً ونفعاً. ولو شئت أن أسيل في عرض الأمراض التي ينشئها مثل هذا الاعتقاد لفعلت ولكن نكتفي بهذا هنا. إذ الذي لا يفهم هذا الكلام فمن باب أولى لن يفهم الباقي.

وأما إذا سألت: فأين هو "بيت الله" فأقول هو كل مكان تسكن فيه روح الله. وأعظم البيوت هو كتاب الله الحاوي لعلمه وروحه. وقلب العالِم هو بيت الله. وكل بيت يدرس فيه كتاب الله هو بيت الله. "اجعلوا بيوتكم قبلة". والحمد لله.

...-...

١٩
حوار حول الآخرة.

هذا الحوار دار بيني وبين أحد السائلين ممن يعتقدون بأن الآخرة نوع من الحياة تميل إلى الجسمانية وستكون بعد موت الجسم الذي تعارف عليه الناس. وسأشير إليه بحرف (س) ولنفسي بحرف (ن).

س: ما هي الحياة الآخرة عندك؟
ن: هي الحياة النفسية للناس في هذه الحياة.
س: فما هو أجر الذي يعمل بالقرءان والذي لا يعمل بالقرءآن إذ لم تكن هناك حياة بعد موت الجسم؟
ن: أنا لا أنكر بيقين إمكانية وجود حياة بعد هذه الحياة. ولكن كذلك لا أستطيع أن أثبتها بيقين. فهذه من الأمور التي لا يوجد برهان لصحتها ولا لكذبها. فهي تميل إلى باب التكهن والظن وتخيل ما نريده أن يكون حقيقة على أنه حقيقة.

وإني أميل إلى رؤية السؤال عن الحياة بعد هذه الحياة كمثل أن يسأل الجنين عن الحياة بعد حياته في رحم أمه. لا هو يستطيع أن يثبت وجودها إذ هو لا يعرف غير الرحم. ولا يستطيع أن يثبت عدم وجودها لأنه يتكهن. فلندع كل مرحلة لما فيها. وحسبنا أن نعيش ونصلح هذه الحياة طالما أننا فيها. ولا ننشغل بما لا فائدة فيه للواقع ولا برهان عليه.

وأما أجر العمل بالقرءان. فأضرب لك مثلاً. إذا ذهب رجل سمين إلى الطبيب وقال له "أيها الطبيب أعطني نظام صحي لكي أسير عليه" ثم أعطاه الطبيب هذا النظام الصحي للجسم. ثم تصور أن هذا الرجل السمين قال للطبيب "وما هو المكسب الذي سأجنيه إذا سرت على هذا النظام؟" سيقول الطبيب "ستتنعم بحياة جسمانية صحية إذا توفرت لك الظروف المساعدة". وكذلك في الحياة النفسية. فالانسان الذي يريد أن يحيا حياة نفسية طيبة فالقرءان يقدم له نظام صحي ليسير عليه. وهذا هو أجر القرءان: أن تحيا حياة طيبة. فالطب صحة للأجسام والقرءان صحة للنفوس.

وعلى فرض أن الرجل السمين قال "لا، لن أسير على نظامك الصحي هذا إلا إذا وعدتني بجائزة قيمة بعد الموت" فعلى الأغلب سيقول له الطبيب "أنا أرسم لك حياة لصحة جسمك الآن، فإن كنت تريد غير ذلك فاذهب إلى غيري فليس عندي ما تريده". وكذلك العالم بالكتاب يرسم صحة للنفوس الآن. فمن أراد غير ذلك فليذهب إلى غيره. لعل الكهنة سينفعونه والسحرة كذلك.

س: فماذا عن الآيات التي تتحدث عن الآخرة؟
ن: كلها أمثال ورموز على الحقائق النفسية.

يقول عن الجنة "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين". فلو كان وصف الجنة في القرءان هو وصف ظاهري لحياة بعد الموت فعندها نحن نعلم ما أخفي للمؤمنين من قرة أعين.
س: نعم، ولكن وصف القرءآن هو صحيح بالأسامي فقط ولكن الحقائق العينية مختلفة.
ن: على ذلك يكون وصف القرءان غير صحيح. لأنه استعمل الكلمات ليوصل لنا معاني، ثم أنت تقول أن هذه المعاني غير متصورة فعلاً. فلماذا تكلّم أصلاً. هذا طعن في بيان الله لنا. كيف تقول أن الله يصف أمور غير حقيقية وصادقة.
س: فماذا عن جهنم، أن يعذب الله فيها الكافرين بعد الموت؟
ن: إن العذاب والعقاب يكون لأحد ثلاثة أسباب: إما لإصلاح المجرم. وإما لردع المجتمع. وإما للتلذذ بمنظر المتعذب والانتقام منه والتشفي منه.

أما إصلاح المجرم، فجهنم حسب هذه الرؤية هي عذاب أبدي. وبالتالي لم تخلق لاصلاح المجرمين. إذ سيخلدوا فيها.

وأما ردع المجتمع، فالآخرة حسب هذه الرؤية هي دار النهاية حيث لن ينفع أحد أي شيء من صلاح وغيره.وبالتالي لا يوجد مجتمع أصلاً ليتم ردعه. هؤلاء في الجنة إلى الأبد. وهؤلاء في النار إلى الأبد.

وأما الاحتمال الأخير وهو أن ننسب إلى الله عز وجل التلذذ بمنظر المعذبين وتشفي الناس منهم بمظهرهم القبيح المعذب، فهذا أشنع من الكفر إذا نسبناه إلى الله، والمؤمنين سكّان الجنة هم أخبث نفوسنا من الكثير من مجرمي اليوم الذين إذا رأوا امرأة أو رجل أو شاب أو شيخ يتعذب قد تحن قلوبهم عليه بعد بضعة ساعات في أسوأ الحالات فضلاً عن الأبدية، فنفوس أهل الجنة ليست نفوساً طهرت من الغل والحقد والمرض بل يظهر أنها نفوس تحتاج إلى علاج نفسي مكثف.

فإذن فكرة العذاب بعد الموت التي يتصورها الناس يمكن تقسيمها بين الغباء والكفر أو بين ذلك سبيلاً.
س: ما الفرق بين اعتقادنا بأن الآخرة هي الحياة النفسية أو الحياة بعد الموت كما نتصورها، بالنسبة للقرءان؟
ن: يقول الحق "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". فالمعاني النفسية يمكن أن نبرهن عليها حتى لأشد الناس جهلاً بالقرءان العربي لو كان له عقل راقي. ولكن المعاني الخيالية لا برهان عليها والاعتقاد بها قائم على أحلام واعتقاد راسخ بسبب التربية أو مرض نفسي معين.

فالقرءان كله عظيم ونافع إذا نظرنا له نظرة أمثال نفسية. ولكن بغير ذلك يصبح كغيره من كتب الأساطير التي تزعم أمور بدون أي برهان حق عليها. والحق يقال أنه لا يوجد كتب أساطير. كل هذه الكتب أمثال ورموز ولكن جهلة الناس عندما توكل إليهم أمانة تعليم الناس هذه الكتب فإنهم لجهلهم وعقدهم النفسية ومصالحهم الشخصية يقومون بتحويلها إلى أساطير وخرافات لا علاقة لها بالواقع. ويحيلونها إلى دعاوي لا يمكن اثبات صحتها ولا اثبات خطئها. ثم يزعمون أنه من الايمان والعبادة أن تسلم لهم بصحة دعاويهم بدون أي برهان. ولولا مرض الاتباع لما تبعهم أحد.

قرءان الأمثال كله نافع وعميق. قرءان الأوهام سيهجره الناس ولذلك يهجر هؤلاء القرءان.
س: فماذا لو كان كلامك خاطىء، أن تخاطر بدخول جهنم؟
ن: كلامي مبني على علم وبرهان. ونحن نعمل بالأسلم ونحفظ الحرمات ونسعى لتنوير الناس وتحريرهم ورفع الأغلال والسلاسل عنهم ونعمل على خلق السلم في المجتمع، السلم الحقيقي النابع من السلم النفسي لكل فرد أو أكثر الأفراد. فإن كان هؤلاء سيدخلون النار فمن يا ترى سيدخل الجنة، المنافق المتوهم المريض الذي يحرك جذعه بضع مرات كل يوم ويتمتم بكلمات لا يفقه منها شيء ويحسب أنه من المخلصين.

نحن لا نؤمن بالخوف. الخوف لا يدفع إلا الأغبياء والمعقدين نفسياً. وأفكارنا لا تبنى على افتراض أمور لا يوجد وجه حق لافتراضها. لأني أستطيع أن أقول لك: افترض أن الله ليس هو الإله الحقيقي، وأن الله الحقيقي هو إله اليهود أو العبرانيين. أو افترض أنه لا يوجد إله ولكن البوذيين هم على حق وأنك إذا لم تبلغ حالة الفناء في هذه الحياة فإنك سترجع إلى الأرض بجسم آخر، قد يكون جسم خنزير أو حذاء قديم أو فرشاة أسنان لرجل كريه رائحة الفم. وافترض وافترض إلى ما لا نهاية.

كل ما لا يجلب الفرحة لنفس الانسان في هذه الحياة هو من جهنم. بدون عقائد ولا أديان كل هذا كلام في الواقع. وكل ما يجلب الفرحة لنفوس الناس هو من الجنة. والحق هو ما ينفع الناس. وهذا هو معيار الحق الوحيد الذي يمكن اثباته ويمكن أن يتوحد عليه الناس. وكل ما عدا ذلك سراب يحسبه الظمآن ماء.

"ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون".
س: سأفكر في الأمر.
ن: سلام على من اتبع الهدى.

...-...

٢٠
لماذا نحيا بحسب عين يوسف

١- لقد صُدمت بعد أن وعيت سورة يوسف بصورة عامة. من المعلوم أن كل قصة يمكن أن تُقرأ من أكثر من عين. ونريد أن ننظر إلى سورة يوسف من عين يوسف. ونريد أن نعرف الغاية من الحياة بحسب يوسف.

منذ أن كان علاماً ورءا رؤيته وأصبحت كل حياته متمحورة حول هذه الرؤيا، ولذلك لما تحققت قال "توفني مسلماً". فكل حركة في الحياة كانت سعياً إلى تحقيق رؤيته. وبالتالي إذا أردنا أن نفهم الدافع الحقيقي الذي يدفعه يجب أن نعرف جذر رؤيته. أي ما هو السبب أنه رءا هذه الرؤيا بحد ذاتها وليس أي رؤيا أخرى.

تحقيق الرؤيا كان: "رفع أبويه على العرض" وَ "خروا له سجداً". هذا هو كل ما كان يريده من الحياة. أن يرتفع أبويه، وأن يسجد له إخوته. لماذا أراد هذين الأمرين؟ كله للكبرياء النفسي لا غير.

"رفع أبويه على العرش" هذا يعني أنهما لم يكونا مرتفعين على العرش من قبل. فكانوا أذلة نسبياً. أي "عرش" يقصد هنا؟ عرش مصر. "ادخلوا مصر" ووجود التعريف تدل على الخصوصية والوحدة. ولاحظ، بما أنه هو الذي رفع أبويه فهذا يعني أنه هو شخصياً أرفع منهم. لأن المعطي أرفع من الآخذ بداهة. فبهذا العمل أراد يوسف أن يرتفع هو على أبويه.

"وخروا له سجدا" أي نوع من الكبرياء هذا الذي يرغب في أن يسجد له إخوته ! نعم يمكن أن نفهم رجل يريد الغرباء أن يسجدوا له. ولكن هذا كبرياء يجعل الكبرياء المعتاد تواضع. فإخوته العشرة الذين كادوا له هؤلاء زائد الأخ الخاص الذي ءاواه إليه، كلهم أراد أن يسجدوا له. فلم يستثني حتى أخاه الحبيب المقرب من أبيه ومنه والذي عانى ما عانى من حقارة العشرة.

فإذن يوسف رغب في أن يكون أكبر من أبويه وإخوته ويريد الكل أن يكونوا دونه وسجدوا له. "إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين". ١٣ ساجد، وهو الواحد القهار. ولاحظ تقديمه لكلمة "لي" على "ساجدين"، ولم يقل: رأيتهم ساجدين لي. فهذا أضعف. الأقوى كما قال "لي ساجدين". أي لذاتي ولخصوصية عندي.

فغاية يوسف من الحياة هي الكبرياء التام. أي الارتفاع على الأبوين والإخوة، وسائر الناس بالطبع. فالذي يتكبر فعلاً على أهله هل سيشفق على الغرباء عنه.

يوسف يرمز إلى كل نفس. وهذا كما علمنا هو جوهر النفس، أي الكبرياء. الرغبة في الكبرياء التام. وهذا لن يكون إلا بوضع الآخرين دوننا، بحق أو بغير حق لا يهم. لاشك أن ما فعله يوسف كما هو ظاهر في كل القصة هو تحقيق للكبرياء بحق. فهو يستحق الكبرياء الذي حصل عليه. ولكن واقعاً هذا لا يهم. لأن الواقع لو أنه رضي أن يقول الآخرين حتى يرفع نفسه، أو قبل بنزول الآخرين له: ورغب في ذلك ولو لاشعورياً منذ عهد الطفولة أو "غلام". واستمر على رؤياه حتى وصل إلى نهاية عمره.

٢- بعد أن علمنا هذا، هل هذه حياة تستحق أن نعيشها ونتعذب في سبيلها؟ كل ما نريده هو أن نشعر بكبر على الآخرين، لا يستثنى هذا نفس واحدة في كل زمان ومكان. كل سعي الناس هو أن يكونوا أكبر من ناس. ولهذا يسلكون طرق مختلفة. ونحن لا يهمنا اختلاف الصور طالما أنهم مشتركين في الجوهر. ولا يهمنا هل الكبر بحق أم بغير حق. كل من يريد الكبر فهو يريد أن يجلب الذل على نفوس الذين يريد أن يكون أكبر منهم. لا يستثنى من هذا انسان، حتى عامل النظافة والمشلول. طالما أنه يتنفس فهو يسعى للكبرياء. وأي نفس ترضا أن تستمد فرحتها من ذل الآخرين هي نفس حقيرة فعلاً. نحن كلنا مصاصين دماء، نعيش على جروح الآخرين.

ورذا أدخلنا الله في الموضوع، سنتساءل: هل يمكن لله الرحمن الرحيم أن يأذن بوجود هذه الحياة؟ ولا يأتي مغفل ويقول: ولكن الله أمر بالتواضع وما شابه. لأن مجرد وجودك على الأرض هو سعي للكبرياء، ومجردك كونك تمشي على رجلين ويوجد رجل مقطوع الرجلين-أو مشلوم هو كبرياء. مجرد وجود شعر على رأسك أمام رجل أصلع هو كبرياء وقد يسبب له الألم. مجرد خروجك أيتها المرأة مع زوجك هو تعذيب للشباب العازب الذي يريد الزواج ولا يستطيع. وهكذا سواء فعلت أم لم تفعل، سواء رغبت أم لم ترغب، فإن وجودك بحد ذاته سبب لتعاسة بعض الناس لا محالة.

فالحياة على الأرض حرب دائمة لا يمكن ايقافها أبداً. ولا علاقة للأفكار والعقائد والأخلاق الحسنة وما شابه لها بأي شيء. بل هذه من أحسن وسائل الكبرياء التي ابتكرناها لنذل بعضنا بعضاً. ويذيق بعضنا بأس بعض. فالحياة على الأرض عذاب لا مخرج من هذا، هي تعذيب يتشارك فيه كل حي على الأرض حتى لو لم يدرك أنه يشارك. في كل ساعة من ساعات حياتك أنت تعذب الناس أو فريق من الناس، وتتعذب من فريق آخر. كل حي على الأرض يجلد وينجلد. يمص الدماء ويمتص الناس من دمه. الكل في العذاب مشتركون.

الآن هل يمكن أن يكون هذا اختيار الله؟! استحالة. نحن ظلمنا أنفسنا. إن الله لا يظلم مثقال ذرة. نحن اخترنا أن ننزل إلى هذا الجسم، ونسكن في الأرض. وكلنا مثل الكلب الذي قال عنه "أخلد إلى الأرض". نحن اخترنا من قبل أننا نريد الانفصال عن الله وعالمه. ونأتي إلى الأرض

لكي نكون ملوك أنفسنا أو نكون من الخالدين حسب ما غرر بنا الشيطان. نعم قد لا نؤمن بوجود شيطان، على الأقل هو مثل. وهذا أثر المثل مائل أمامكم. نحن نحيا الآن في هذا الغرور. وصدق الله عندما سماه غروره.

لما لاحظ يوسف أن الحياة سعي حقير عرف الحق وقال "توفني مسلما". فهو قد قتل نفسه. هذه الكلمة تعبر عن الرغبة في الوفاة، في العودة إلى الله. نعم الآن يريد العودة بعد أن عرف أن كل حياته سعي حقير للتكبر على الناس واذلالهم. وهذا مثل كل نفس أخرى بلا استثناء فرد واحد. الكل يريد مثل يوسف، ولكن ليس الكل سيحقق ما حقق يوسف. ولذلك سيلهينا كما قال الله "الأمل". كل يوم نؤمل أن غدا سيكون أحسن. غدا ستتحقق أحلامنا. غدا سنصل إلى كبرياؤنا وسيحترمنا الناس ويذلوا لنا. غدا سنرى أعداؤنا ينذلوا. غدا غدا غدا. ولن يأتي غدا، إن هو إلا وعد كاذب من عقل جاهل.

٣- هذه هي الحيوة الدنيا. جهنم. وأما الآخرة العليا فلن تكون إلا إذا اخترنا أن نذهب إليها بإرادتنا ومشيئتنا. فالذي لا يترك الدنيا باختياره سيعود إليها. "كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها". وإذا قال وعمل كما عمل يوسف في قوله "توفني مسلماً" وهي الرغبة الحية بقتل النفس فعندها لن يعود إلى الدنيا وسيضعه الله في عليين حيث وعد.

فحتى الآن أمام طريقين: إما نبقى في الدنيا ونتعذب خالدين فيها. وإما أن نقول "توفني مسلما" ونرجع إلى الله ربنا. "يا أيها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنّتي".

...-...

٢١
عن "يبني إني أرى في المنام أني أذبحك"

١- نلاحظ أنه لم يقل "إني أُريت في المنام" أو "إن الله أراني في المنام" أو "إن الله أمرني في المنام". ولكن جعل الرزية خاصة به وصادرة من قلبه هو "إني أرى". ونحن نعلم أن رؤيا المنام هي تمثل لرغبة نفسية. وغالباً إن لم يكن دائماً تكون رغبة متنازع فيها، أي يوجد قسم من النفس يرغب ويؤيد تحقيقها، وقسم آخر ينهى عن تحقيقها. وبسبب غلبة القسم الرافض لتحقيقها فإن الرغبة تنكبت وتذهب إلى الباطن اللاشعوري، ومع الوقت تبدأ تسعى هذه الرغبة اللاشعورية للظهور ولتنال شيئاً من الاشباع، فتبدل صورتها بالأسلوب الرمزي، وأيضاً تظهر في الأحلام المنامية بصورة قوية.

فإبرهيم كان يرغب هو نفسه في التخلص من ابنه. والذبح طريقة عنيفة تشبه ذبح البهائم. مما يدل على احتقار لاشعوري للابن. والذي يلفت انتباهنا هو أن إبرهيم كان يرغب في ابن طوال حياته، حتى إذا جاءه الابن أصبح يرغب في ذبحه ! كيف؟ يوجد أكثر من نظرية تفسير هذه الظاهرة، ولعلها كلها صحيحة، كل واحدة من زاوية معينة:
أ- خلاف العادة. لقد اعتاد إبرهيم على أن لا يتحمل مسؤولية ابنه، زي عندما قضى شطراً كبيراً من عمره بلا أبناء. فحياة الزوج الذي يستمتع نسبياً مع امرأته بدون انجاب أبناء هي حياة ممتعة جداً ومريحة. ولعلها حالة مثالية عند البعض ممن لا يرغبون في جلب أبناء إلى هذا العالم الصعب الشقي. ولكن بما أن إبرهيم منع من الأبناء بطريقة جبرية فإنه وبناء على حقيقة أن "كل ممنوع مرغوب" أصبح يرغب في ابن ليس لأنه يرغب في ابن ولكنه يرغب في كسر هذا الحاجز الذي يحد من كبرياءه الذاتي، زي بكسر الكاف وسكون الراء والباء. وهذه الظاهرة النفسية مشهورة جداً. أي عندما يحسب الانسان أنه يرغب في شيء، حتى إذا تحقق له هذا الشيء ملّ منه وأصبح يرغب في غيره. فالواقع أنه يرغب في الشعور بالكبر فقط. وما هذه الرغبات إلى وسائل تجلب هذا الشعور وليست مرغوبة لذاتها.

فعندما تعتاد النفس على شيء فمن الصعب عليها أن تتخلى عنه، ولولا وجود أسباب قوية ملجئة فغالباً تسعى النفس إلى ذبح هذا الأمر الجديد والابقاء على العادة. أي جعل الأصل هو بقاء ما كان على ما كان.

ولكن هذه النظرية وحدها لا تكفي لتفسير فعل إبرهيم ورغبته، لأنه لو أراد ذبح ابنه بسبب القلق الذي جلبه لحياته وكسره لعادته لتخلص منه وهو صغير وليس عندما "بلغ معه السعي". فكون القرءان ربط بين بلوغ الابن واشتداد قوته وبين رؤية ابرهيم واقدامه على الذبح يدل على وجود علاقة فعليه بين الأمرين.

ونلاحظ أن إبرهيم لم يقل "إني رأيت في المنام" ولكن "إني أرى في المنام" مما يدل على أنه رأي أكثر من مرة. بل تدل على تكرار الرؤية، بل والأكثر تدل على أن الرؤية ملازمة له كلما نام. والنوم غفلة الانسان من العالم الخارجي. فيوجد في نفس ابرهيم خشية من حدوث أمر ما بينما يكون هو نائماً. أي انسان ما سيفعل أمر سيء له مباشرة أو غير مباشرة بينما يكون هو نائماً غافلاً عن العالم الخارجي. وهذا الانسان هو ابنه. فهو يريد أن يتخلص من قلقه هذا عن طريق ذبح ابنه. وإذا أخذنا بقانون ردة الفعل، أي القصاص، فإبرهيم يخشى أن ابنه سيذبحه وهو نائم على حين غفلة. فهويريد أن يذبح ابنه قبل أن يذبحه ابنه. أو هكذا يحسب على الأقل.

ولكن ما الذي يجعل إبرهيم يحسب أن ابنه سيذبحه؟ هنا تأتي العلاقة بين بلوغ السعي وبين الذبح. فابرهيم كان يفعل أمرا ما. وهذا الأمر كان مكررها بالنسبة للابن منذ الصغر، ولكن بما أنه طفل وصبي صغير فإنه لا يملك إلا أن يتحمل ويخضع لإرادة أبيه وسوء فعله. وإبرهيم يعلم ذلك فلم يبالي بمشاعر ابنه حينما كان صغيراً. ولكن الآن بعد أن "بلغ معه السعي" استيقظ الخوف ودب القلق في نفس إبرهيم من ابنه. فهو يعلم أن الابن يملك الآن أن ينفذ انتقامه إذا شاء. فسعى إلى ذبح ابنه قبل أن يذبحه ابنه.

ما هو هذا الأمر السيء الذي جعل الابن يحقد على الأب؟ إذا نظرنا في شخصية إبرهيم فسنرى أنه حليم كريم. فلا نحسب أنه كان يعامل ابنه بطريقة سيئة بطريقة متعمدة كأن يضربه مثلاً. فأغلب الظن أن ما كان يفعله هو أمر طبيعي ولكن كان يؤذي الابن. ومن طول التأمل في هذا الأمر ومن ما نعرفه عن الحالات النفسية نستنبط أن هذا العمل السيء هو: حجب الأم والاستئثار بها. فالابن الذي يرغب في أن تكون أمه له فقط، عندما يرى أن الأب يحجبها عنه، فإنه يحقد على الأب ويسعى إلى إزالته من الوجود انتقاماً منه.

وحجب الأم هو عمل متواتر في دنيا الآباء. ولذلك لا نرى علاقة بين ابن وأمه إلا في حالة واحدة في القرءان وهي حالة مريم وعيسى. وذلك لأن هذه القصة تمحق وجود الأب أصلاً. وننظر في سورة يوسف مثلاً فنرى أن حجب الأم، برغم وجودها بدليل أنه رأى القمر وقال في نهاية القصة "ورفع أبويه"، حجب يعقوب ليوسف عن أمه هو السر الجوهري الذي ولّد رويا يوسف التي يرغب فيها في اذلال كل من في السماء. وكذلك في قصة موسى، فإنه لم ينل علاقة مع أمه إلا أن أبيه لم يكن حاضراً في القصة أصلاً. فكلما وجد الأب حجبت الأم. والعكس صحيح. وحتى يتصل الابن بالألم فإنه تولد في نفسه رغبة، رغبة جوهرية جبارة، هي قتل الأب وذبحه كما تذبح البهائم.

فرؤيا إبرهيم هي في الحقيقة ردة فعل لرغبة ابنه اللاشعورية، فكأنه يوجد اتصال باطني بين الأب والابن. والمفاجأة هي أن الابن خضع لرغبة الأب. لماذا؟ الجواب كامن في قول الابن "إن شاء الله". فلهذا الابن قد حول رغباته الجسمانية الغريزية إلى أفكار روحانية هستيرية. فهو، ولعله بعد

طول الحجب والخوف من الأب أي عقدة الخصاء بحسب التحليل النفسي، قد رأى أنه من الأسلم له أن يوجه طاقاته إلى مجالات أخرى. فأصبح يعتقد بوجود إله مسيطر يفعل ما يشاء ويتحكم في المشاعر والانفعالات ويأمر وأمره مطاع، وكل هذا في جوابه لأبيه "يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين". وظاهر أنه جعل الله على صورة أبيه. وظاهر أيضاً أن إيمانه بالله، والذي هو أبيه في الواقع، والله خفي عن عالم الأجسام، هو بحد ذاته يدل على رغبته في "اختفاء" أبيه من هذا العالم. فالايمان بالله هو رمز على قتل الأب. فالابن المؤمن بالله يقول في الواقع "يا أبت أنت رجل عظيم ولكن وجودك في هذا العالم مصدر ألم لي، فأرجوك اذهب من هذا العالم واختفي للأبد في مكان بعيد". الايمان بالله هو قتل للأب بطريقة رمزية. والذي لا يستطيع أن يفعل الشيء واقعياً سيفعله رمزياً. وإذا راح وتعذّر الأصيل برز البديل.

والأب الذي يزرع في ابنه الايمان بالله وما إلى ذلك هو في الحقيقة يرغب في أن يصرف انتباه الابن عن نفسه وعن الأم أي زوجه. ومع طول الاعتياد يبدأ الأبناء بالدفاع عن عقائد الآباء، ليس حباً في الآباء ولا ايماناً بالعقائد، ولكن لأن هذه العقائد تعمل كبديل رمزي لرغباتهم الحقيقية المغطاة. فإذا تخلوا عن الرموز، سيضطروا إلى مواجهة الأصل. وهم يخشون من مواجهة الأصل، أي الأب. ولذلك يبقون على الرموز والأصنام. إن الناس لا تؤمن بالآلهة إلا لأنها تخشى من مواجهة حقيقة رغباتها. العقائد أغطية وحجب .وعلى مستوى خفي كل الناس تعرف حقيقة رغباتها الآثمة والوحشية. "بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره".

إن الأب يعتني بالابن في الصغر حتى يعتني فيه الابن في الكبر. لا يوجد علاقات إلا وهي قائمة على منفعة أنانية. فاذا تبين للأب أن ابنه لن يعتني به ويأس منه فإنه لا يبالي به، وإذا رأى أنه سيذبحه انتقاماً منه فإنه سيسعى لذبحه أولاً كما هي حال إبرهيم هنا.

٢- فعلاجاً ووقاية من هذا الذبح والانتقام المتبادل فإني أرى التالي: أن يبقي الرجل زوجته معه طالما أنه لم ينجب منها ابن. فاذا انجبت تركها وابنها يحيون سوياً بدون أن يظهر أبداً، اللهم يعيلهما إذا وجد ويعتني بهما إذا اضطرا. فرذا جاء الابن يجب أن يموت الأب. ولا محل لمَلِكَين في أرض واحدة. ورذا خرج إمامان في أرض فيجب أن نقتل أحدهما. الأب الذي يستمسك بالأم في حضور الابن سينتج إما ابناً عاقاً، أو ابناً مريضاً معقداً، أو سيأتي يوم ويرى نفسه مع الملائكة ميتاً مذبوحاً. والأم التي توافق على فعل الأب هذا وتخضع له وتتخلى عن الابن فإنها ستنتج ابناً يعامل النساء باحتقار، أو تدميري يريد هدم كل شي، أو عاشق للكبيرات في السن، أو زاهداً في هذا العالم الحقير. فلا نبالغ إذا قررنا بأن شقاء العالم يبدأ من غضب الابن على أبيه الذي حرمه من أمه ونافسه عليها وضللها عنه. والله هو أقوى أسلحة الأب لقتل الابن. وعندما يقوم الأبناء سيذبحوا الآباء وربهم في يوم الوقت المعلوم.

....انتهى والحمد لله.